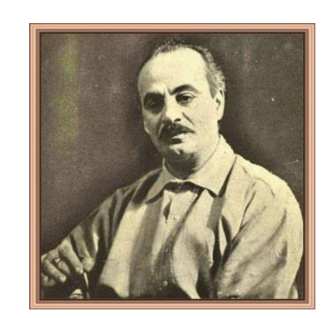


سيرة جبران خليل جبـران وأبرز منجزاته

١٩٣١-١٨٨٣

تمهيد

غنيّ عن البيان أنّ جبران خليل جبران هو أحد ألمع الأعلام اللبنانيّين في الوطن والمهجر. وألمعيّته تتناول قطاعين من قطاعات الإبداع: قطاع الأدب وقطاع التصوير. ولقد أثار نتاجه، فضلًا عن سيرته وشخصيّته، اهتمامًا منقطع النظير. وهو لا يزال، حتّى وقتنا الراهن، موضوع عناية بالغة من قِبَل الباحثين والدارسين، من جميع المشارب والاتجاهات.

كثيرة هي الدراسات والأبحاث التي تناولت جبران في نواحٍ متعدّدة من نتاجه وشخصه. وفي توطئة الدراسة التحليليّة-التركيبيّة، القيّمة والمسهبة، التي وضعها غازي فؤاد براكس عن "أدب" جبران "ورسمه وشخصيّته"، يصنّف الباحث، جلّ ما كُتب عنه، في أنواع ثلاثة[١] : نوع أوّل "تختلط فيه الحقائق بالأوهام" في سياق أسلوب روائيّ يغلب عليه "انفعال المناصرة" تارة (كما في مؤلَّف بربارة يانغ[٢])، به طورًا منزع "عرض الذات" (كما في كتاب ميخائيل نُعيمة حسب ما يذهب إليه ناقدوه[٣]). أمّا النوع الثاني فيحاول "تحاشي أخطاء الطرفين"، لكنّه ينجح حينًا ويفشل حينًا آخر (كما في مصنَّف جميل جبر[٤] وآخرين). يبقى النوع الثالث الذي يشير إليه براكس وهو الذي يتّبع النهج العلميّ، فيتدارك أصحابه الخطأ ويتجنّبون الشطط (كما لدى خليل حاوي[٥] وأنطون غطّاس كرم[٦]).

وكأنّنا بالباحث براكس، في تصنيفه هذا، يريد أن يضع دراسته في باب نوع رابع جديد من الدراسات الجبرانيّة. إنّه النوع الذي يعتمد المنهج التحليليّ التركيبيّ، ويستند إلى المكاسب التي حقّقتها المباحث الأدبيّة في سيكولوجيا الفنّ، فيتيسّر له، إذّاك، رفع العجز وحسم التباين وتدارك التضارب في التخمينات والترجيحات والاحتمالات التي تشوب ما سبقه من أبحاث تناولت جبران في نتاجه التأليفيّ والتصويريّ ، فضلًا عن شخصيّته.

---

[١]. براكس، غازي، **جبران خليل جبران في دراسة تحليليّة تركيبيّة لأدبه ورسمه وشخصيّته**، دار النسر المحلّق للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ص ١٧، ١٨، ١٩.

[2].Young, Barbara, ***This man from Lebanon: A study of Khalil Gibran***, New York, A.A. Knopf, 1945.

[٣]. نعيمه، ميخائيل، **جبران خليل جبران: حياته، موته، أدبه، فنّه**، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، طبعة سابعة، ١٩٧٤.

[٤]. جبر، جميل، **جبران: سيرته، أدبه، فلسفته ورسمه**، دار الريحانيّ للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٨.

[5] . Hawi, Khalil, ***Khalil Gibran: His Background, Character and Works***, Beirut, A.U.B., 1963.

[٦]. كرم، غطّاس أنطون، **محاضرات في جبران خليل جبران وسيرته وتكوينه الثقافيّ، مؤلّفاته العربيّة**، القاهرة، معهد الدراسات العربيّة العالميّة، ١٩٦٤.

ويمكننا أن نشير، في هذا السياق، إلى منهجيَن آخرين تمّ اعتمادهما في الدراسات الجبرانيّة اللاحقة وما زالا في طور التكوين. الأوّل منهما أطلقه كمال يوسف الحاج في الدراسة التي خصّ بها جبران في مؤلّفه الموسوعيّ "موجز الفل سفة (كذا) اللبنانيّة"[١] الصادر مطالع العام ١٩٧٤. لقد شاء الحاج، في دراسته هذه، أن يُدشّن عهدًا جديدًا من الدراسات الجبرانيّة يُعتمد فيه المنهج الفلسفيّ المرتكز على ضرورة تظهير "عمارة فلسفيّة" أو نظام فلسفيّ يتضّمنه النتاج الجبرانيّ التأليفيّ في مختلف تشعّباته ومنعرجاته. غير أن دراسة الحاج، على الرغم من مرور فترة زمنيّة تتجاوز العقود الأربعة على إنجازها، وعلى الرغم من اعتماده إيّاها في دراسة نتاج أعلام لبنانيّين آخرين (أمثال الرّيحاني ونعيمة والشميّل وسواهم)، فإنّها لا تزال وحيدة في بابها، ولم يتنبّه لها الباحثون في نتاج الأعلام اللبنانيّين. أمّا الثاني فيسعى إلى تطبيق منهج النقد الفلسفيّ الوجوديّ في الدراسات الأدبيّة النقديّة، وهو المنهج الذي أرسى ركائزه الفيلسوف الفرنسيّ الوجوديّ جان بول سارتر واعتمده في دراسته التحليليّة الارتداديّة لحياة الشاعر الفرنسيّ بودلير، وهو الذي اعتمده نبيل أيّوب في الدراسة الموجزة التي خصّ بها جبران في كتابه نصّ القارئ المختلف وسيميائيّة الخطاب النقديّ –الجزء الثاني– الصادر في العام ٢٠١١[٢].

ثمّة مفارقة هامّة، هنا، تجدر الإشارة إليها. إنّها تلك المتعلّقة بالتباين والغموض اللذيَن ما برحا يلفّان النتاج الجبرانيّ والشخصيّة الجبرانيّة، على الرغم من كثرة الدراسات والأبحاث التي تناولت الرجل، ولا تزال تتناوله. ولعلّ مردّ ذلك كلّه غياب التوثيق المنهجيّ الشامل لوقائع السيرة الجبرانيّة، وللظروف الموضوعيّة التي أحاطت بنشأة أعماله– الكتابيّ منها والتصويريّ– وجعلت من ذلك كلّه ما هو عليه في الظاهر. من هنا منشأ الحاجة الملحّة لوضع أرشيف توثيقيّ متكامل– وفقًا لأعلى المقاييس العلميّة والأكاديميّة– يتمّ اللجوء إليه واعتماده، قبل المباشرة بأيّ بحث أو دراسة تتناول جبران في ناحية، أو أكثر، من ناحيات حياته الحافلة الصاخبة، ونتاجه الغنيّ المتنوّع، وشخصيّته الإبداعيّة الطريفة. وما يصحّ على جبران يصحّ بالمقدار نفسه على غيره من الأعلام اللبنانيّين الآخرين، السابقين له واللاحقين به. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فلا بأس إن ذكرنا أنّ هذا ما تنبّهت له مؤسّسة الفكر اللبنانيّ في جامعة سيّدة اللويزة، وباشرت العمل عليه منذ سنوات عدّة، وهي ماضية فيه قُدمًا، وعازمة على سوقه حتّى خواتيمه السعيدة.

---

[١]. الحاج، كمال يوسف، **المؤلفات الكاملة**، المجلّد الحادي عشر، **في الفلسفة اللبنانية (٢)**، (موجز الفل سفة اللبنانية)، بيت الفكر – أسسيّة كمال يوسف الحاج، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ٤٤٤ – ٤٦٠.

[٢]. أيّوب، نبيل، **نصّ القارئ المختلف وسيميائيّة الخطاب النقديّ**، الجزء الثاني، مكتبة لبنان، طبعة أولى، ٢٠١١، ص ٢٦٦–٢٨٣.

نسب جبران وولادته وطفولته

هو ابن خليل بن جبران بن سعد بن يوسف بن جبران[١]. كانت ولادته "ليلة السادس من كانون الأوّل سنة ١٨٨٣ في قصبة بشرّاي من أعمال لبنان"[٢] وفقًا للتاريخ الذي أورده ميخائيل نعيمه في كتابه عن جبران، والتاريخ عينه الذي ذكره جميل جبر في مؤلَّفه عنه أيضًا. لكنّ جبر يشير، في الحاشية الثانية من الصفحة ذاتها، إلى تاريخ آخر هو السادس من كانون الثاني- وليس الأوّل- من العام ذاته، وذلك نقلًا عن مي زيادة التي كانت تهنّئه، في هذا التاريخ، بعيد مولده[٣].

ووالدة جبران هي كاملة "ابنة الخوري اسطفان عبد القادر رحمه"[٤]. اصطحبها زوجها حنّا عبد السلام رحمه معه إلى البرازيل ومات هناك عن ولد لهما هو بطرس. ففضّلت العودة مع ابنها إلى أبويها في لبنان، ثمّ ما لبثت أن تزوّجت خليل جبران، وأنجبت منه ثلاثة أولاد هم: جبران البكر ويصغر بطرس بستّ سنوات، ومريانا وتصغر جبران بثلاث سنوات، وسلطانة وتصغره بخمس سنوات[٥]. فيكون خليل، طبقًا لهذه الرواية، زوجها الثاني بعد حنّا عبد السلام رحمه زوجها الأوّل. لكن ثمّة رواية أخرى تجعل من خليل زوجها الثالث، وهي الرواية التي ينقلها نبيل أيّوب في كتابه المشار إليه آنفًا. وزوجها الثاني بعد الأوّل- وفق هذه الرواية- هو الثريّ يوسف جعجع والذي "طلبت منه الطلاق بعد أسبوعين من زواجهما"[٦].

والشائع المتدَاول عن والد جبران وطبائعه أنّه كان فظًّا سكّيرًا، يسيء معاملة أفراد أسرته، ويقسو على ولده- منذ سنواته الأولى- قسوة بالغة، ولا يهمّه من أمر دنياه غير "الدنّ المليء". هذا ما يورده جبر صراحة في معرض حديثه عن الوالد[٧]، وما يوحي به نعيمه في حديثه عنه كذلك. يضع نعيمه الحديث التالي على لسان القابلة، ويجعلها تقول للوالد ليلة مولد الصبيّ: "هنيئًا لمن رأكَ صاحيًا ولو مرّة واحدة"، ويجعل الوالد يجيبها بالكلام التالي: "مهنتكِ سحب الأطفال من بطون الأمّهات، لا سحب الرجال من بطون الأدنان"[٨]. وفي مكان آخر من كتاب نعيمه، نقرأ ما يقوله الأب للابن بعد أن دفعه الأوّل خارج البيت وأغلق الباب وراءه- إثر نوبة بكاء انتابت الصبيّ وذكر الكاتب أسبابها، ولم ينفع في تهدئتها لا ملاطفة أمّه ولا ضرب أبيه-: "حرمتني لذّة قهوتي وسيكارتي. انقذف من

---

[١]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٤؛ خالد، غسّان، **جبران الفيلسوف**، مؤسّسة نوفل، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، تمّوز، ١٩٨٣، ص٢٠.

[٢]. نعيمه، ميخائيل، مرجع سابق، ص٢٤ .

[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٤.

[٤] . في كتاب بربارة ينج (كذا) ص ١٧، وحين تضع المؤلّفة الكلام على لسان جبران، يرد اسم الوالدة على النحو الذي تتلفّظ به العامّة في شماليّ لبنان بعامة وفي بلدة بشرّي بخاصّة: "كميلة رحمي".

[٥]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٥؛ براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٨، حاشية رقم ٢.

[٦]. أيّوب، نبيل، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

[٧]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٥.

[٨]. نعيمه، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٤ و ٢٥.

وجهـي"[1]. وفي موضع ثالث من الكتاب ذاته نقرأ ما يقوله بطرس لأمّه بعد أن عزما على السفر إلى بوسطن: "إذا وفّقني الربّ يا أمّي (يقصد في السفر) فسيكارته لن تنطفئ وقهوته لن تنقطع وقدحه لن يفرغ"[2].

هذه الصورة للوالد، الفظّة والمنفّرة، تقابلها صورة أخرى مغايرة يبدو أنّها الأقرب إلى الحقيقة. فقد كان "قنوعًا" لا تستهويه "المخاطرة والمغامرة"، ملتزمًا عدّ رؤوس الماعز والأغنام في الجرود، وجباية الرسوم منها لصالح الحكم العثمانيّ. وكان جبران يعيش، في كنف هذه العائلة، "حياة طفليّة شبه فردوسيّة وسط أسرته"[3]. ويصف غازي براكس حالة الوالد المادّيّة على أنّها "أقرب إلى متوسّط العيش". فهو" لم يكن فقيرًا بائسًا" كما أظهره بعض الباحثين، ولا "متنعّمًا بثراء وبحبوحة" كما حلا لآخرين أن يُظهروه. ويتطرّق براكس كذلك إلى ما كان له من مداخيل أخرى. ففضلًا عن "الأجر الذي كان يتقاضاه من المتصرّفيّة" لقاء عمله في "تعداد رؤوس الماعز والأغنام، على ظهر الحصان، في جرود بشرّي وجوارها وجباية الرسوم من أصحابها"، كان يحصل على ما يُقدّر بخمس مئة مدّ من القمح، كلّ عام، من مزرعة مرجحين التي كان يملك قسمًا كبيرًا منها، مع بعض قطعان من الماعز. زِدْ على ذلك حانوتًا صغيرًا لبيع الأقمشة، يُحتمل أنّ بطرس كان يديره[4].

ارتاد جبران، على غرار باقي الصبية، مدرسة بشرّي ،وأنهى دروسه الإبتدائيّة فيها وهو في الحادية عشرة من عمره، وتحدّثت الألسن عن حدّة ذكائه. وسعى والده لدى الشيخ طنّوس الضاهر كي يُعلّم ابنه على نفقته في مدرسة الحكمة في بيروت. قصد الشيخ مرّة في زيارة مسائيّة رافقه فيها الابن، وسمع النصيحة التي أُسديت إليه من أحد أنسباء الشيخ الحاضرين، ومؤدّاها أنّه من الأفضل له أن يقتني عنزة يرعاها، فتفيده أكثر من ارتياد المدرسة[5].

الحدث الأوّل الحاسم في حياة الصبيّ جبران، وفي حياة العائلة، نجم عمّا تعرّض له أبوه من اتّهام بسرقة أموال الضرائب التي كان يجبيها من العمل الموكل إليه. فحُكم بالسجن لمدّة ثلاث سنوات وصُودرت أملاكه[6]. ولهذا الحكم الجائر خلفيّات تتعلّق بزواج الوالدة كاملة من الوالد خليل يقتضي إيضاحها.

وبيان ذلك أن الوالدة أقدمت على مساكنة خليل جبران، بضعة أيّام، قبل موافقة المراجع الدينيّة على بطلان زواجها الثاني من يوسف جعجع. وقد أثار هذا الزواج حفيظة رجال الدين الموارنة الذين عمدوا إلى التواطوء مع رجال الإقطاع، وراحوا ينتظرون الفرصة السانحة

---

[1]. نعيمة، ميخائيل، مرجع نفسه، ص ٣٠.
[2]. مرجع نفسه، ص ٣٥.
[3]. أيّوب، نبيل، مرجع سابق، ص ٢٦٦.
[4]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٢، حاشية رقم ٢ وحاشية رقم ٣.
[5]. مرجع نفسه، ص ٦٧؛ جبر، جميل، ص ١٨ و ١٩.
[6]. أيّوب، نبيل، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

للانتقام. وقد توفّرت لهم حين رتّبوا وشاية اختلاس أموال الضرائب التي تقدّم بها أحد الكهنة[١]، فجُرّم خليل ظلمًا، وأُخضع للعقوبة الجائرة. ولم يبقَ أمام العائلة إلا أن تحسم أمرها، وتتخذ قرار الرحيل إلى بوسطن.

بوسطن

اضطرّت العائلة الفقيرة المنكوبة لبيع حتّى أواني المنزل، بغية تأمين مستلزمات السفر، وحزمت أمتعتها متوجّهة إلى العالم الجديد، إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، إلى مدينة بوسطن تحديدًا. في تلك المدينة القصيّة بدأ صراع العائلة المضني، وبدأ العهد الثاني من حياة جبران.

وصلت العائلة إلى بوسطن سنة ١٨٩٥. ويشير غازي براكس، في دراسته عن جبران، إلى تضارب في الآراء حول تاريخ الوصول من غير أن يستطيع الفصل في الأمر. ففي حين يحدّد إيليّا أبو ماضي، في مجلّته "السمير"، شهر حزيران من هذا العام تاريخًا للوصول، نرى جميل جبر يعيّنه في أوائل العام ١٨٩٥، بينما ينفرد خليل خاوي بجعله سنة ١٨٩٤[٢]. وفي بوسطن استقرّت العائلة "في حيّ الصينيّين، أقدم أحياء المدينة وأضيقها، حيث تتعانق نراجيل التنباك والأفيون وتتراكب طاولات النرد على الأرصفة القذرة". وفي هذا الحيّ أنشأ بطرس محلًا صغيرًا لبيع الخردة، ودخل جبران مدرسة قريبة، وراحت الأمّ تتحضّر لمزاولة الخياطة وابنتيها في زوايا مسكن مظلم[٣].

انتقل جبران إلى مدرسة أرقى بعد أن أصاب أخوه بعض النجاح في عمله، وراح يبذل ما في وسعه للاهتمام بتعليم أخيه. وفي هذه المدرسة الجديدة لفتت موهبة التصوير لدى الفتى أنظار معلّميه، فعرضوا تصاويره على المصوّر " ماجر"– أحد أشهر مصوّري المدينة– الذي صار يدعوه إليه[٤]. وعند هذا المصوّر تعرّف إلى سيّدة ثلاثينيّة أغوته وأوقعته في شباكها، فتعلّق بها وراح يتردّد إلى منزلها وسط وجوم عائلته وقلقها عليه. و"مرّ عام مزدحم بالزيارات السرّيّة إلى البيت السرّيّ"[٥]. وكان من نتائج هذه العلاقة أن قلّت عناية جبران بالتصوير والعلم، وأوشك أن ينسى مشروع العودة إلى لبنان ليتعلّم العربيّة ويتقنها في إحدى مدارسها، وهو كان قد فاتح أخاه بطرس بنيّته العودة إلى لبنان لهذه الغاية ووعده أخوه بالمساعدة[٦]. لكنّ جبران ما لبث أن تجاوز هذه العلاقة بمساعدة صامتة وخفيّة من أمّه

---

[١]. أيّوب، نبيل، مرجع سابق، ص ٢٦٧؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، **الثيوصوفيّة وأثرها في أدب جبران خليل جبران**، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربيّة وآدابها، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الثاني، الفنار، ٢٠٠١، (عدد صفحاتها ٣٠٤)، ص ٩٦، حاشية رقم ٢.

[٢]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٨، حاشية رقم ١.

[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٢٠.

[٤]. مرجع نفسه.

[٥]. تناول نعيمه بالتفصيل علاقة جبران بهذه السيّدة في كتابه عن جبران في صفحات عدّة منه: من صفحة ٤١ لغاية ص ٥٤. وعلى الرغم من هذا الإسهاب فإنّ الغموض والالتباس يلفّان هذه الرواية من جميع جوانبها، لاسيّما ما يتعلّق منها، ليس بحقيقة العلاقة بينها وبين جبران وحسب، بل بحقيقة وجودها في حياة جبران.

[٦]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٢٠.

وأفراد عائلته، فعاوده حنين الرجوع إلى بلاده تحقيقًا لحلمه في التمكّن من العربيّة. فحسم أمره أخيرًا، و"حمل حقيبة رسومه وكتبه وأثوابه وودّع بوسطن... "[1] ميمّمًا وجهه شطر بيروت.

بيروت ومدرسة الحكمة وبشرّي

وصل جبران إلى لبنان خريف العام ١٨٩٨ وفقًا للتاريخ الذي يورده جميل جبر[2]. لكنّ براكس يحدّد، بشكل قاطع، يوم الثالث من آب من العام ذاته تاريخًا لهذه العودة، وذلك استنادًا إلى تاريخ مكتوب بخطّ يد جبران على الورقة الأخيرة من كتاب إنكليزيّ أهداه إيّاه الرسّام الأميركيّ "فريد هولاند داي"[3]. ويبدو أنّ وصوله تزامن مع بدايات العام الدراسيّ، أو قريبًا من بداياته، وانتسب إلى مدرسة الحكمة، إحدى أعرق المدارس الوطنيّة في المدينة والتي أنشأها المطران يوسف الدبس راعي أبرشيّة بيروت للموارنة.

"زار جبران أباه في بشرّي ثمّ عاد إلى بيروت" وطاف في أنحائها، فاستهوته هضبة مار متر وراح يقصدها للتنزّه بعد تعب الدرس. درس جبران العربيّة على يد الخوري يوسف الحدّاد أستاذ البيان في الحكمة[4]، ونصحه أستاذه بقراءة "كليلة ودمنة" و"الأغاني" و"نهج البلاغة" و"التوراة"، فعمل بهذه النصيحة. ولقد عُرف جبران ، في مدرسة الحكمة، "بسرعة الإدراك، والنهم إلى العلم (...) وبعناده واستقلاله بالرأي"[5].

لقد شكّل انتساب جبران إلى مدرسة الحكمة، وإقامته في بيروت، وتردّده إلى مسقط رأسه بشرّي، فترة خصبة جدًّا وحافلة في حياته. في هذه المدينة تعرّف على الرسّام حبيب سرور، وفي تلك المدرسة "أنشاء مجلّة مدرسيّة أسبوعيّة اسمها "النهضة"... وكان يضمّنها شيئًا من رسومه... وكان بين أبرز رفقائه ومساعديه النحّات يوسف الحويّك والشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير)"[6].

لم يكن جبران ليتوانى عن زيارة بشرّي. ولقد زارها في الصيف الثاني لقدومه إلى لبنان. وكانت الغاية من زيارتها قضاء عطلة الصيف وأباه فيها، وربّما أيضًا المباهاة والتشاوف بما أنجزه خلال غيابه، لاسيّما أمام آل الضاهر الذين زارهم مرّة في دارهم وافتتن بجمال

---

[1]. مرجع نفسه، ص ٢١.

[2]. مرجع نفسه، ص ٢٢.

[3]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٩، حاشية رقم ١.

[4]. اسمه، قبل أن يُسام كاهنًا، "عبد الأحد". وُلد وترعرع في عين كفاع، مسقط رأس مارون عبّود، قضاء جبيل. وُلد عام ١٨٦٥ وتُوُفّي عام ١٩٤٩. بدأ تدريس البيان في مدرسة الحكمة عام ١٨٩٩. درّس جبران العربيّة، وله عدد من المؤلّفات المطبوعة، ومؤلّفات أخرى لا تزال مخطوطة. أهدى إليه جبران **الأجنحة المتكسّرة** لدى صدورها، وكتب عليها كلمة الإهداء التالية: "أنت أَوْلى بأُولى بواكيري". ثابر على مكاتبته إلى أن كتب الحدّاد إليه يلومه على مهاجمته رجال الدين، فقطع مكاتبته إليه. (براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٧٦، وحاشية رقم ٤ من الصفحة ذاتها).

[5]. جبر، جميل، مرجع نفسه، ص ١٨و١٩؛ براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٧.

[6]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٢٢-٢٤.

"الست حلا" ابنة "الشيخ طنّوس"، وهام بها هُيامًا بلغ حدّ التولّه. حدث هذا صيف العام ١٨٩٩[١]، وإلى هذا التاريخ تعود بداية علاقته العاطفيّة بحلا الضاهر. لكن أنّى لجبران أن يصل إلى مبتغاه "وجدار الفصل" الإقطاعيّ راسخ متين عصيّ على الاختراق، منتصب دومًا أمام وجهه ووجه أمثاله من عامّة الشعب المساكين؟ وماذا يفيد العلم، وماذا تُكسب المعرفة، وماذا ينفع الترقّي في معارج الحياة في حضرة أمجاد موهومة موروثة قائمة على الجهل والعصبيّة والتزمّت؟ ماذا يمنح المرء كلّ هذا... وتتمّة القصّة معروفة.

طوى "العهد الحكمويّ" سنوات أربع من عمر فتانا جبران، قفل بعدها عائدًا إلى بوسطن. عاد في العام ١٩٠٢ إلى حيث أمّه وأخوه وشقيقتاه، يحمل في نفسه "حقدًا على إقطاعيّتَي السياسة والدين، وثورة على التعسّف والخوف والجمود، ونقمة على الزواج المصلحيّ... وحمل في قلبه حبًّا عاصفًا يحدوه على الرجوع وقد ذلّل العراقيل..."[٢].

بوسطن من جديد

لم يختلف جبران إلى مدرسة في بوسطن، هذه المرّة، كما فعل من قبل. مارس التجارة، وأكبّ على الرسم، والدرس على ذاته. كتب شعرًا منثورًا ولم يرضَ عنه "لأنّ التعبير الصحيح ما زال" يخونه، فعمد إلى تمزيقه. وكذلك فعل في العديد من الرسومات التي أنجزها في هذه الفترة لأنّها "لا تنطبق على الصور التي كانت في [مخيّلته] حين كانت [عيناه] مغمضتين"[٣].

زيارة خاطفة إلى بيروت

في هذه الفترة، طلب منه صديقه "فريد هولاند داي" أن يصطحب عائلة أميركيّة ثريّة تريد السياحة في منطقة الشرق الأدنى، فأجابه إلى طلبه وقام بمرافقتها، في ترحالها، كترجمان ودليل[٤].

أبحرت العائلة الأميركيّة من الولايات المتحدة، يصحبها جبران، أوائل شباط عام ١٩٠٢، وكانت لندن محطّة الوصول الأولى، أعقبتها باريس، ثمّ إيطاليا. وبعد أيّام كان الوصول إلى بيروت. وعرف خليل أنّ ابنه وصل المدينة، وأنّ سلطانة تعاني داءً خطيرًا ألمّ بها، فكتب إليه مستفسرًا. أجابه جبران نافيًا ومؤكّدًا أنّها على خير ما يُرام، وشارحًا له أسباب قدومه. لكن سرعان ما تلقّى جبران برقيّة من بطرس تُعلمه أنّ داء السلّ قد قضى على سلطانة، وانّ الأمّ مصابة به وقد يقضي عليها أيضًا، طالبًا منه العودةعلى وجه السرعة[٥].

---

[١]. مرجع نفسه، ص ٢٤.

[٢]. مرجع نفسه، ص ٢٥؛ براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٤٩٠.

[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٣٠.

[٤]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٣٠؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، **الثيوصوفيّة وأثرها في أدب جبران خليل جبران**، مرجع سابق، ص ٩٣ و٩٤.

[٥]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٣١ و٣٢.

عود إلى بوسطن

قبل أن يحلّ أيّار كان جبران أمام سرير أمّه خائفًا. إلّا أنّ العلاج أسعفها هذه المرّة، فتماثلت للشفاء. وفي فسحة ضيّقة جدًّا من الوقت، أكبّ جبران على العمل بكلّ قواه، يكتب ويرسم ويقرأ غير حاسب "للإرهاق حسابًا"، فأُصيب بعلّة مزمنة لازمته طوال حياته. وممّا زاد في الأمر تفاقمًا وسوءًا الفجيعة المزدوجة التي فاجأته وأودت بحياة بطرس في ١٢ آذار، وبحياة كاملة في ٢٠ حزيران عام ١٩٠٣[١].

كبح جبران من لوعته واستمرّ مجدًّا في العمل. وأتى بوسطن، في هذه الفترة، صحافيّ لبنانيّ ناشئ، هو أمين الغريّب، كان قد قرأ كتابات لجبران أعجبته، فأقنعه بنشرها في جريدة "المهاجر". وفي ٥ آذار عام ١٩٠٣، صدر أوّل مقال لجبران في هذه الجريدة وعنوانه "رؤيا"، وقد أورد جميل جبر، في كتابه، مقتطفات عديدة منه[٢].

بقيت أحوال جبران المادّيّة سيّئة للغاية، ولم يُتح له أن يُحسّن منها شيئًا. واستمرّت المشكلات الماليّة في التراكم عليه، واستمرّت مريانا تعالج إبرتها بغية إعالة شقيقها، واستمرّ جبران مقيمًا وإيّاها في منزلهما المتواضع المؤلَّف من غرفتين "في شارع أدنبرغ"، قبل أن ينتقل "إلى محلّة أوليفر رقم ١٥ ثمّ إلى شارع تيلر رقم ٢٧". وفي هذه الفترة عاوده الحنين إلى حلا الضاهر ولازمه طيفها "أكثر من خطرة الذكرى"، فأخرجه رسمًا لا يزال محفوظًا في متحفه في بشرّي[٣].

تابع جبران نشر خواطره في "المهاجر"، وعمدت مجلّة "المنار"– التي كان يصدرها قسطنطين ينّي في بيروت– إلى نشرها تحت عنوان "دمعة وابتسامة" مصحوبة بالتقريظ والإطراء. وفي المجلّة الثانية ذاتها كان ينشر "كاتب ثائر آخر في لبنان هو أمين الريحاني". وتخطّى جبران، في هذه المرحلة، كتابة المقال القصير ونشر، عام ١٩٠٥ في كرّاس مستقلّ، بحثًا ذاتيًّا في الموسيقى نال استحسانًا كبيرًا غداة نشره[٤] .

وفي هذه المرحلة العصيبة من حياته، وجد جبران نوعًا من الاطمئنان والتعزية في التقرّب من جوزفين بيبودي. وجوزفين هذه شاعرة أميركيّة سبق له أن تعرّف إليها أثناء إقامته الأولى في بوسطن عندما كان في الخامسة عشرة وهي في الرابعة والعشرين. وكانت مطمئنّة كثيرًا "لاندماجه في الحركة الفنيّة البوسطينيّة"، ولإعجابه "بصوفيّة ماترلنك، وإمرسون، وكيتس". ولقد "ذكرته مرارًا في يوميّاتها" وأسمته

---

[١]. مرجع نفسه، ص ٣٢ و٣٣ و٣٦. ويحدّد براكس في كتابه، ص ١٤٩، حاشية رقم ٢، تاريخ وفاة الوالدة في ٢٨ حزيران.

[٢]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٣٦–٣٨.

[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٣٩.

[٤]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٤٠ و٤١.

الملاك، "وكتبت عنه قصيدة بعنوان "النبي" "، وكثيرًا ما كانت تناديه: "يا نبيّي الصغير". ولعلّ جبران "مدين لها بعنوان أشهر" كتبه، والذي صدر بعد هذا التاريخ بزمن يناهز العشرين عامًا[١] .

تجمّعت لدى جبران مجموعة لا بأس بها من اللوحات، فأقام صديقه "فريد هولاند داي" معرضًا لها في محترفه. وصديق جبران هذا هو رائد النهضة الأدبيّة والفنيّة في بوسطن، ومرشد المتطوّعين لتمرين الغرباء في المدينة. ومعرفته بجبران تعود لفترة سابقة، إذ كانت معلّمته "جسّي فرمونت بيل" في مدرسة "كوينسي" الرسميّة التي ارتادها جبران أوّل قدومه إلى بوسطن، قد اختصرت اسمه إلى "خليل جبران" في رسالتها إلى "داي"، وبه سيعُرف نابغتنا في أميركا. وكان "داي" يسعى إلى "تفجير طاقات "الفنّان الصغير" في الرسم وفي توسيع معرفته بالأدب... كما عرّفه إلى نخبة البيئة البوسطينيّة"[٢]. أقيم هذا المعرض عام ١٩٠٤، وكانت "ماري هاسكل" من بين زائريه، وكانت يومها في الحادية والثلاثين من عمرها[٣]. ومنذ اللحظة التي وطأت فيها قدماها أرض "استديو" الرسّام "داي"، انعقدت بينها وبين جبران روابط علاقة عميقة لم يقوَ الزمن على حلّ أواصرها .

ماري إليزابيت هاسكل

هي رئيسة مدرسة "مِسْ هاسكل" للبنات في المدينة، في شارع مارلبورو منها. لذلك يطلق نعيمه عليها لقب "الرئيسة" في كتابه، ويقدّمها لقارئيه في صورة حيّة ومشوّقة: في وجهها بكلّ ملامحه وتفصيلاته، وفي قامتها، وفي مشيتها، وفي سجاياها الخُلقيّة والعقليّة والمناقبيّة، والعديد من الأمور الأخرى المتعلّقة بسلوكيّاتها وحكمتها حيال وقائع الحياة اليوميّة، وإزاء من تلتقيهم في دائرة تقاطع حياتها مع الآخرين[٤].

وفي تقدير افتراضيّ استباقيّ لنوع العلاقة الدائمة التي ستكون بينها وبين جبران، ينسج نعيمة رؤى حلم خطر لطفلة في العاشرة من عمرها، ويرويه مباشرة بعد فراغه من سرد وقائع ولادة جبران. يجعل نعيمة ابنة العاشرة تستفيق من نومها وتجلس في سريرها مستعيدة ما ترآى لها في الحلم. وأبرز ما في حلمها ذاك الخيط الأبيض الطويل المعقود حول وسطها، والممتدّ حتّى شاطئ البحر، ومنه فوق الأمواج

---

[١]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٠ و٩٤.

[٢] الحلو اللّحام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٣ و٩٤. وفي دراسته عن جبران، ص ٢٣٩، وفي ملاحظة عابرة، يشير نبيل أيّوب إلى علاقة لواط مؤقّتة بين "داي" وبين جبران محاولًا تعليل الأسباب التي جعلت جبران يرتضيها. وكان براكس قد تطرّق، في دراسته، إلى موقف جبران من الشذوذ الجنسيّ قائلًا: "فهو يبدي نفورًا شديدًا واشمئزازًا قويًّا [منه] ولاسيّما المثليّة الجنسيّة" (ص ١٤٢، حاشية رقم ٢).

[٣]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٥.

[٤]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٧٤ و٨٢ و٨٣.

حتّى يغيب عن ناظريها في الأفق البعيد، وصولًا إلى المقلب الآخر من الأرض[١]. وابنة العاشرة هذه هي هاسكل، وجبران يصغرها بسنوات عشر.

زارت ماري معرض جبران في ١٠ أيّار عام ١٩٠٤. وبعد فراغها من زيارة المعرض، دعت جبران كي يزورها في المدرسة، ثمّ أقامت معرضًا للوحاته في مدرستها في العام ذاته. دام المعرض عدّة أسابيع، وكان جبران يحضر "بعد ظهر كلّ يوم تقريبًا، ليوضّح مغلقات فنّه للزائرين". وخلال زيارته المعرض تعرّف إلى صديقة لماري هي المعلّمة الفرنسيّة في مدرستها "ماديموازيل إميلي ميشيل"، والتي يدعونها تحبّبًا "ميشلين". وكانت ماري "تقدّم لها أجرًا مرتفعًا مع بعض الهبات الماليّة المنتظمة"[٢]. ويرجّح براكس أن الصداقة بينهما جبران(وميشلين) لم تترسّخ إلّا بعد أن رسمها للمرّة الأولى في السادس من شباط عام ١٩٠٨[٣].

لم تكن العلاقة بين هاسكل وجبران على خير ما يُرام في البداية، بل كان يشوبها شيء من التوتّر. فماري كانت تعرّض بصغر قامته ووهن بنيته[٤]. هذا فضلًا عن أنّ صديقتها جوزفين كانت قد سبقتها إلى قلبه. لكنّ العلاقة بينهما ما لبثت أن استقرّت وترسّخت، بعد أن تزوّجت جوزفين من "ليونيل ماركس" صديق هاسكل. هكذا وجدت ماري– وقد خيّبها "ليونيل" – في جبران "قلبًا كسيرًا يتناغم... مع نغمات قلبها الكسير"؛ ووجد هو فيها، وقد خيّبته جوزفين، ملاذًا آمنًا يغنيه عمّا افتقده في غياب الأخيرة. وكتدشين لهذا العهد الجديد بينهما أهداها مجموعته القصصيّة الأولى "عرائس المروج"[٥].

راح "جبران يتردّد على ماري ويجتمع بها في مدرستها أو في بيتها"، فتعرّف عندها بصديقة أخرى لها هي "شارلوت تلر". وكانت شارلوت تقارب صديقتها ماري عمرًا، وكان طلاقها من زوجها لايزال حديثًا حين تعرُّفها على جبران. وكانت ماري تقدّم لها، هي الأخرى، مساعدة ماليّة منتظمة. وقرّرت ماري أن يصبح جبران، بعد أن توطّدت أواصر الصداقة بينهما، " ثالث الفنّانين الذين

---

[١]. مرجع نفسه، ص ٢٨ و٢٩، و ٧٨.

[٢]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص٩٦، حاشية رقم٢.

[٣]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٤٦و١٤٧؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٧٩. وعلى الصفحات ٨٣،٨٤، ٨٥ من كتابه، يقدّم نعيمة وصفًا لميشلين يفوق في جماله واتقانه وصفه هاسكل.

[٤] . براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٨٤. وحول قامة جبران ترى برباره يانغ أنّها لم "تكن تزيد عن ١٦٠سنتيمترًا"، وأنّه "لم يكن يرتاح لقامته القصيرة". وحول وهن بنيته تقول إنّه "اشتهر بقوّة عضلاته، وقدرته على العمل المتواصل"، لكنّه لم يكن يفاخر بقوّة العضل تعويضًا عمّا بشعر به من النقص. كلّ ما هنالك أنّه كان يودّ لو كان أطول قامة ممّا كان" (مرجع سابق، ص ٣٤). وفي موضع آخر تتحدّث عن قوّة غريبة في يديه منحته إيّاها الطبيعة، "فكان إذا هزّ يد ضيفه [...] تلوّى من الألم [...]. وقد كان جبران يصرّح لنا، أنّه قبل مصافحة الضيف، يحاول أن يفكّر قليلًا، حتّى لا يلحق بيده أذًى". (مرجع نفسه، ص ٣٢). أمّا جميل جبر فيصف قامته بأنّها معتدلة على قصر، ويحدّد طولها ب ١٦٣سنتيمترًا (جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٩٥). أمّا براكس (مرجع نفسه ص ٧١، حاشية رقم ٣) فينقل عن يانغ أنّ طوله لم يتجاوز خمسة أقدام وثلاث أو أربع بوصات.

[٥] . الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٥. ومجموعة **عرائس المروج** القصصيّة أصدرها جبران في العام ١٩٠٦.

شملتهم بعطفها ورعايتها"، وأن توفده على نفقتها إلى باريس لكي يتخصّص في الرسم في أكبر معاهدها[1]. فودّع جبران بوسطن وودّع أصدقاءه فيها، قاصدًا باريس، عاصمة الآداب والفنون والأحلام. وكانت ميشلين قد سبقته إلى المدينة، واتخذت مكان إقامة لها في مسكن قريب من المسكن الذي سيتّخذه جبران مكان إقامة له، طالبًا من ماري أن تراسله على عنوانها[2].

في باريس

اتّخذ جبران مكان إقامة له في شارع "فو جيرار" قرب جادتَي "راسباي" و"مونبرناس"، في الطابق الأوّل من بيت كبير عاديّ البناء، شغله الفنّانون كلّه". وانتسب إلى "أكاديميّة جوليان" للتصوير، وليس إلى أكاديميّة "البوزار" كما يذكر نعيمة، "ودرس فيها على الرسّام جان بول لورنس أصول التقنيّة". وأكبّ، في الوقت نفسه، على التمرّس بالفرنسيّة ليسهل عليه متابعة الصفوف[3]. وفي باريس التقى يوسف الحويّك، رفيقه القديم على مقاعد الدراسة في مدرسة الحكمة. فجدّدا عهود الصداقة بينهما، وانطلقا معًا يخوضان معترك الفنّ، ومعترك الحياة الجديدة في هذه الحاضرة العظيمة. وكانا يقومان معًا بزيارات دوريّة للمتاحف والمعارض بغية استطلاع مجاري الحركة الفنّيّة، والاستفادة منها في تغذية فنّهما وتطوير تقنيّاتهما التعبيريّة. كما كانا يترافقان إلى المسارح والمتاحف، ويقضيان الكثير من السهرات في قاعات الموسيقى ودُوْر الأوبرا. وكثيرًا ما كانا يتناولان طعام الغداء في مطعم "مدام بوداي" في جادة "راسباي"[4].

كان جبران وصديقه النحّات الحويّك يستأجران موديلًا واحدة، وكانت إيطاليّة تُدعى "روزينا"، و"تثور غالبًا على برودة جبران العاطفيّة نحوها". هذا ما ينقله جبر، ويوافقه الرأي عليه براكس بناء على ما أخبره به الحويّك[5]. أمّا أصدقاؤه فكانوا من الأميركيّين المقيمين في العاصمة الفرنسيّة في غالبيّتهم، "وكان يحلو له أن يوهمهم بنبل أصله... طمعًا باستثارة إعجابهم". ومن اللبنانيّين المقيمين في باريس، لم يعاشر إلاّ قلّة قليلة يسمّي جبر اثنين منهم: عبّاس البجّاني[6]، ويوسف رحيّم، وقد انفصلت عن هذا الأخير زوجته متأثّرة بـ"وردة الهاني" بطلة جبران" في كتابه "الأرواح المتمرّدة"[7].

---

[1]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سالق، ص ٩٥ – ٩٦. والمبلغ الماليّ الذي قرّرت ماري أن تمدّ به جبران كي يتمكّن من متابعة الدراسة في باريس، وفقًا لما يورده نعيمة، يبلغ خمسة وسبعين دولارًا كلّ شهر، إلى أن ينهي دروسه، فضلًا عن تعهّدها دفع أكلاف السفر(نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٩٣).

[2]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٤٧، حاشية رقم ١.

[3]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٧٢، ٧٣.

[4]. مرجع نفسه، ص ٧٢، ٧٣.

[5]. مرجع نفسه، ص ٧٤، حاشية رقم ٤؛ غازي براكس، مرجع سابق، ص ٧٢، ٧٣، حاشية رقم ٦.

[6]. عبّاس البجّاني هو "أوّل من هاجر من بيت شباب إلى فرنسا، وأصبح نقيب التجّار في باريس"، وهو "ذلك التاجر الأديب، والعربيّ اللبنانيّ الصميم" (الريحاني، أمين، **قلب لبنان، سياحات صغيرة في جبالنا وتاريخنا**، ط. ٤، بيروت، مؤسّسة دار الريحاني، ١٩٧٠، ص ١٠٩).

[7]. جبر، جميل، ص ٧٣، ٧٤.

لطالما راودت جبران ، في باريس، فكرة لقاء النحّات الفرنسيّ المبدع فرنسوا–أوغست– رينيه روдан. ولقد تيسّر له ذاك اللقاء بترتيب ومسعى من فنّانة أميركيّة صديقة في خريف العام ١٩٠٩. ولقد تكرّرت لقاءاته وروдан من بعد، وتركت في نفسه وفنّه أبعد الأثر، "فأخذ عنه الدقّة التفصيليّة في تصوير الجسد، والرشاقة الطبيعيّة في أداء ديناميّة الحركة، فضلًا عن النظرات التي تمثّلها". أمّا "روдан"، من ناحيته، فقد توقّع لجبران مستقبلًا باهرًا في رسالة منه إلى صديقه "هنري بوفور"[١].

في باريس أيضًا، تسنّى لجبران أن يتعرّف إلى شعر"وليم بلايك"، وأدبه، وفنّه، من خلال قراءته لسيرة كتبها عنه "اسكندر جيلكريست"[٢]، ممّا دفعه إلى التعمّق في نتاج بلايك وتأثّره في ناحيات عديدة من نتاجه.

كثيرًا ما ارتاد جبران متحف اللوفر، ووقف أمام الروائع المعروضة فيه وقفات تأمّل وخشوع. وكم من مرّة قارن، في نفسه، بين تلك المعروضات وبين ما أنتجته ريشته! وما كان ذلك إلّا ليزيده إصرارًا على النجاح وإثبات الذات في دنيا الفنّ والعطاء. فيندفع إلى العمل المضني بكلّ قواه، متنقّلًا بين "ضفّتي "السين" الشماليّة، حيث اللوفر وحدائق تويليري وغابة بولونيا، والجنوبيّة حيث الجامعة والأنفاليد وبرج إيفل وقصر لوكسمبورغ". ويذكر جبر، نقلًا عن جبران تويني في عدد خاصّ بجبران من مجلّة "المكشوف"، حادثة طريفة مفادها أنّ الأخير شاهده "في أحد أروقة الصور، في متحف اللوفر، (منتحيًا) زاوية شرقيّة (ومقتعدًا) كرسيًّا مطويًّا... ينقل على "قماشة" أمامه إحدى الروائع وقد استرسل شعره الكستنائيّ، وغمره العرق"[٣].

ومن ثمار رحلة باريس أنّها أتاحت لجبران "رسم أعاظم رجال الفنّ في ذاك الحين" في العاصمة المتألّقة ومنهم: "الصحافي العاصف هنري ده روشفور، والموسيقيّ المجدّد كلود ديبوسي، والكاتب الرمزيّ المتصوّف موريس ماترلنك، والشاعر المسرحيّ إدمون روستان"، وغاريبالدي الصغير، وروдан. ومن ثمارها كذلك أنّها مكّنته من إعادة كتابة "النبيّ" مرّة ثانية، بعد أن كان وضع مسوّدته الأولى إثر مرور عامين على وصوله بيروت لمتابعة الدراسة في مدرسة الحكمة. وكما طوى المسوّدة الأولى لأنّها "فاكهة فجّة"، ولأنّ أمّه رأت أنّ الآوان "لم يئن" بعد لنشره، طوى المسوّدة الثانية ولم ينشرها لأنّه استذكر نصيحة أمّه التي لم تعد على قيد الحياة[٤].

لم يكن من المقرّر أن تدوم زيارة باريس أكثر من عام. لكنّ العام الأوّل انطوى من غير أن يعرض جبران بعض لوحاته في معرض معروف. وزيارة رسّام باريس لا تكتمل إن لم تُوضع رسومه على محكّ الاختبار في معرض يرتاده الجمهور، وتُحكّم فيه لجنة صارمة في تحكيمها. لا بدّ من الانتظار إذًا، ولا بدّ من تمديد أجل المنحة. وفكرة تمديد المنحة هي من اقتراح ماري في الأصل، وقد وافقها عليها.

---

[١]. جبر، جميل، مرجع سابق ، ص ٧٧– ٧٩.

[٢]. مرجع نفسه، ص ٧٩.

[٣]. مرجع نفسه، ص ٨٢. ونشير إلى أنّ جبر لم يذكر لا تاريخ عدد "المكشوف" الخاصّ ذاك ولا رقمه.

[٤]. مرجع نفسه، ص ٩١، حاشية ٢؛ ينج (كذا)، برباره، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩.

وفي ٧ آذار عام ١٩١٠ يكتب إلى نسيبه نخلة جبران مخبرًا إيّاه عن استعداده "لتقديم بعض الرسوم إلى معرض الفنون الفرنساويّ". وفي ٧ أيّار، من العام ذاته، يكتب إلى نخلة عن أهمّيّة المعرض الذي هو "من التمدّن الحديث بمنزلة سوق عكاظ من جاهليّة العرب"، وعن فوزه الباهر في "امتحان" المعرض هذا، وقبول لجنة التحكيم "تعليق" لوحة من "شغله" إلى جانب صور "ابتدعتها رؤوس أعظم المتفنّنين". ويتناول جبران بالوصف، في رسالته ذاتها إلى نسيبه، لوحته التي قُبلت، وهي "تمثّل الخريف بشخص امرأة عارية الصدر يتلاعب الهواء بشعرها ونقابها، فهي بوقوفها وألوانها ومحيطها تتكلّم عن الكآبة التي تجيء بين أفراح الصيف وأحزان الشتاء"[١].

الرَّيحاني في باريس

من المؤكّد أن علاقة صداقة حميمة ربطت بين الرَّيحاني وجبران سبقت مرحلة الخلاف بينهما. ومن دلائل هذه الصداقة العميقة الزيارة التي قام بها الرَّيحاني إلى باريس عام ١٩١٠ يوم كان جبران لا يزال هناك، وقضائهما معًا فترة زمنيّة ناهزت الشهر، غادرا بعدها سويّة إلى لندن حيث أمضيا شهرًا آخر معًا، عاد جبران بعد انقضائه إلى باريس، وغادر الرَّيحاني إلى الولايات المتّحدة.

ثمّة تضارب كبير، بين الباحثين، في تعيين تاريخ هذه الزيارة، وفي تحديد الغرض منها. وبات بين يدينا اليوم، وبعد التنقيبات التي قام بها الدكتور أمين ألبرت الرَّيحاني، وما اهتدى إليه من وثائق جديدة، ما يقطع الشكّ باليقين حول هاتين الناحيتين، فضلًا عن حقيقة العلاقة بين الرجلين. لقد وصل الرَّيحاني إلى باريس في حزيران عام ١٩١٠، وليس في تمّوز من العام ذاته كما أوردت أغات مسعد الحلو اللحّام في رسالتها[٢]. ففي ٥ حزيران من ذاك العام يزفّ جبران، في رسالة له إلى هاسكل، نبأ عزم "صديقه" الرَّيحاني، الشاعر الكبير، على زيارة "باريس قادمًا من سوريا في طريقه إلى لندن". وفي حين يذكر جبر تأهّب الرَّيحاني للسفر إلى أوروبا– من غير أن يعيّن تاريخًا– ويحدّد غرضين له هما سعيه "وراء دواء للألم العصبيّ المزمن الذي أصابه بيده، وقد كتب إلى جبران ينبئه الخبر"، ورغبته في أن يضع جبران "رسومًا، بريشته، تنطبق على روايته الإنكليزيّة "خالد" المعدّة للطبع"[٣]؛ نرى جبران في رسالته يعيّن قصد "الصديق" من زيارة لندن، وهو إخراج "مسرحيّة عربيّة" هناك. وبعد أن يعرّفها ببعض أوجه نشاط الرَّيحاني الأدبيّ، ومنه ما ترجمه منذ أعوام من شعر عربيّ إلى الإنكليزيّة، يبادر فجأة إلى إعلامها أنّه بات في بيته، على خلاف ما كان يظنّه من أنّه لا يزال في سوريا عندما أخبرها عن قدومه إلى باريس، وانّه سيبقى هناك بضعة أيّام يغادران بعدها سويّةً إلى لندن[٤].

[١]. مرجع نفسه، ص ٨٨–٩٠. ولوحة جبران المشار إليها هي "لوحة الخريف"، ولعلّ جسد المرأة العارية الصدر فيها هو جسد ميشلين (الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٩).

[٢].الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٩.

[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٨٧.

[٤]. الرَّيحاني، أمين ألبرت، **تَجاوُزُ الحُطام**: رصد نقديّ لملامح الحركة الأدبيّة في الزمن الموجع، الدار العربيّة للعلوم، ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٣٤ هـ– ٢٠١٣ م، ص ١٩٣. وفي تناولنا هذه الزيارة، فضلًا عن الرحلة إلى لندن، سنعتمد هذا المرجع دون غيره، وننقل عنه نقلًا شبه حرفيّ. فهو يمثّل أحدث ما صدر في هذا الباب وأكثره استيفاءً، متضمّنًا آخر ما



لبث الرجلان طوال حزيران في باريس، وكان شهرهما فيها حافلًا: طافا "الدور والقصور والمتاحف" وارتادا الأندية الليليّة، يرافقهما "صديقهما المشترك النحّات يوسف الحويّك"[١].

جبران والرَّيحاني في لندن

انتهت زيارة الرَّيحاني إلى باريس، فيمّم وجهه شطر لندن مصطحبًا معه جبران. وفي العاصمة البريطانيّة أمضيا "شهرًا كاملًا (تمّوز/ يوليو) مليئًا بالنشاطات الثقافيّة والفنيّة التي تمتّعا بها معًا". وفي ١٠ تمّوز ١٩١٠، كتبا رسالة مشتركة إلى صديقهما الحويّك. ولهذه الرسالة قصّة طريفة أوردها د. الرَّيحاني ومفادها أنّ كلًّا منهما قد كتب "جملة تلي الجملة التي كتبها الآخر، ما يوحي بتداخل فكريّ وروحيّ ثريّ آنذاك بين أمين وجبران". وفي رسالة مؤرّخة في ١٠ تمّوز ١٩١٠، وجّهها الرَّيحاني إلى كلٍّ من والدته وشقيقته، يخبرهما فيها عن زيارته إلى لندن، يكتب: "وكان معي صديقي جبران خليل جبران وهو المصوّر السوريّ الذي كنت أذكر اسمه في البيت معجبًا، فقد أحببته وقضيت وإيّاه في هذا البلد أيّامًا جميلة زرنا فيها المتاحف والمعاهد العلميّة والأدبيّة... "[٢]. ويفصّل جبران، في رسالة إلى ماري هاسكل موجَّهة في الشهر نفسه، بعض ما قاما به في لندن: "تلقّينا دعوة... لحضور أمسية شعريّة في الجمعيّة الشعريّة (Poetry Society)... فذهبنا باللباس العربيّ وسررنا بلقاء العديد من شعراء الإنكليز وفنّانيهم...". وفي رسائله، يصف أمين نفسه ويصف جبران وصفًا طريفًا قائلًا: "وكنّا كالسَمَوْأَل وزهير في سوق عكاظ إنكليزيّ..."[٣].

وفي فقرة أخيرة، من تناوله ما أسماه "رحلة باريس ولندن ١٩١٠"، يشير د. الرَّيحاني إلى مشروع ثقافيّ "شغلهما في تلك الفترة" وهو مشروع إنشاء دار للأوبرا في بيروت. و"الفترة" تلك تشير، بشكل قاطع، إلى "فترة" لندن لا إلى "فترة" باريس، وذلك استنادًا إلى التاريخ المعيّن من قِبل الرَّيحاني نفسه، والذي سيرد بعد حين. ولقد بادر جبران إلى وضع رسم لتلك الدار موسوم بتوقيع "كلّ منهما على اليسار الأسفل من الرسم. وكتبا على اليمين الأسفل اسم المشروع وهو "الأوبرا السوريّة ببيروت". وعلّق الرَّيحاني بكلمة فوق الرسم جاء فيها: "أوّل كلمة من قصيدة لم تُنظم، لُفظت في لندن في غرّة تمّوز/ يوليو من سنة ألف وتسعماية وعشرة"[٤]. إنّ "المشروع الثقافيّ" هذا يشير إليه جبر، ويمهّد لإشارته بمقتطف من رسالة جبران إلى نسيبه نخلة يعلمه (أي يُعلم نخلة) فيها أنّ صديقه "أمين

انتهت إليه تنقيبات الباحث من وثائق تنير سبيل البحث على هذا الصعيد، على أن نشير إلى مراجع أخرى حين ورود تواريخ أو معلومات مغلوطة وغير دقيقة حول هذه الناحية. والمسرحيّة المشار إليها في الرسالة أعلاه هي " "وجده" التي كتبها الرَّيحاني بالإنكليزيّة حول أميرة يمنيّة تعاني من صراعها بين الشكّ والإيمان زمن الإمام عليّ" (حاشية رقم ١ من الصفحة ذاتها).

[١]. مرجع نفسه، ص ١٩٤.

[٢]. مرجع نفسه.

[٣]. مرجع نفسه.

[٤]. مرجع نفسه، ص ١٩٥، وحاشية ١ من الصفحة نفسها.

أفندي الرّيحاني سيأتي إلى باريس، وسوف تسمع ما يسرّك إن شاءت السماء لأنّنا سنقوم بعمل جميل إذا سمحت الظروف"[١]. وهذا "العمل الجميل" ليس سوى "إنشاء مسرح كبير في بيروت" وَضع تصميمه مع الحويّك والرَّيحاني، وقرّروا تنفيذه يوم الرجوع". ويرجّح جبر، في حاشية، أن "تكون رواية شكري غانم "عنترة" التي مُثّلت بنجاح على مسرح الأوديّون" هي التي أوحت إلى جبران هذه الفكرة وهو يسير مع "الأقنومين صديقَيه" في "الشانزيليزيه" "[٢]. لكنّنا نرجّح، بدورنا، أن تكون مسرحيّة "وجده"، التي وضعها الرَّيحاني وقصد لندن بغية إخراجها وتأديتها، هي التي أوحت له ولجبران فكرة إنشاء دار للأوبرا في بيروت تكون مكانًا مناسبًا لتأديتها وتأدية أعمال مماثلة في المستقبل، ويستغني الجميع بذلك عن عناء تكبّد مشقّة الانتقال إلى الخارج بحثًا عن أمكنة يُؤدّون فيها أعمالهم ويعرضون فنونهم.

لقد انطوى شهر لندن سريعًا، كما انطوى قبله شهر باريس، وبانطوائه توجّه الرَّيحاني مباشرة إلى نيويورك، بينما قفل جبران عائدًا إلى باريس تمهيدًا لعودته إلى بوسطن للمرّة الأخيرة.

ما إن وصل جبران إلى باريس، عائدًا من لندن، حتّى انصرف إلى العمل الدائب من جديد. وها هو، في رسالة مؤرّخة في ٢٣ آب ١٩١٠، يخبر صديقه الرَّيحاني أنّه "بين الخطوط والألوان كطائر أفلت من قفصه فطار سابحًا بين الحقول والأودية." وفي رسالته إلى نسيبه نخلة المؤرّخة في ٢٧ أيلول عام ١٩١٠ يعلمه فيها بعزمه على مغادرة باريس "في الرابع عشر من الشهر القادم (تشرين الأوّل)"، وأنّه منصرف إلى ترتيب أشغاله وأحواله[٣]. وبالفعل فقد غادر جبران باريس مساء السبت ٢٢ تشرين الأوّل على متن الباخرة "نيو أمستردام" العائدة لشركة "هولند أمركان لين" على ما كتب لصديقه أمين الرَّيحاني. ومن "على ظهر الباخرة التي أقلّته من فرنسا"، وفي ٢٩ من الشهر عينه، يكتب إلى صديقه الحويّك – الذي كان "وحده في وداعه في محطّة ليون"– عمّا خالجه من انطباعات خلال رحلة العودة إلى مهجره الأميركيّ السابق[٤].

بوسطن للمرّة الأخيرة

عاد جبران، إذًا، إلى بوسطن أواخر "تشرين الأوّل ١٩١٠ بعد سنتين وأربعة أشهر من الغياب"[٥]. وخلال لقائه الأوّل وماري، وبعد عرضه جوانب من رحلته الباريسيّة، أعرب لها عن رغبته في الانتقال إلى مسكن جديد فسيح "بعيد عن "سوث إند" حيث يكثر

---

[١]. جبر، جميل، ص ٨٧.
[٢]. جبر، جميل، مرجع نفسه، ص ٨٧ والحاشية رقم ٢ منها، وص ٨٨.
[٣]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٩١– ٩٣.
[٤]. مرجع نفسه، ص ٩٤.
[٥]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٤٩.

اللبنانيّون والسوريّون فيمنعونه من التنسّك". والمنزل الجديد الذي انتقل إليه يقع قريبًا من منزل "فريد هولاند داي"، وقد أقام فيه مع أخته مريانا وانشأ فيه محترفًا، وانصرف إلى التصوير[١].

وراحت لقاءات جبران وماري تتوالى، "مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع". لكنّ التوتر عاد يشوب العلاقة بينهما. "وفي ١٠ كانون الأوّل من هذه السنة، تبدأ حكاية حبّ تتنازع فيها الرغبة الواعية والموانع اللاواعية في نفس جبران". يبوح لها بحبّه "وبعزمه على تزوّجها إن استطاع. وتوافق ماري بعد تردّد بسيط". ومنطلق عزم جبران هذا هو عرفانه بجميلها عليه. ولمّا كان العقل الباطن لا يلبّي نداء الإرادة دائمًا، فإنّ لاوعيه أظهر "أوّل اعتراض لطيف مُداوِر"... في ٢٨ كانون الثاني ١٩١١". يومها قال جبران لها: "إن تقولي لي: أعتقد [...] أن ليس من الحكمة أن نتزوّج، فسأقبل قولك [...] بلا تردّد أو شرط. وما أن تُعلن له في ١٥ نيسان من السنة نفسها– بعد تردّد وتبصّر مديدين– أنّها كفّت عن التفكير في أن تصبح زوجته [...] حتّى يتبنّى رأيها [...]". وكما كان جبران "في صراع بين رغبته الجسميّة المتوقّدة وبين امتناعه النفسيّ اللاشعوريّ"، فإنّ ماري كانت "في نزاع بين توثّب شهوتها وتقهقر جبران". وبينما كانت هي تحرّضه على الوصال الجسديّ، كان هو يمتدح لها تصعيد الحبّ. وينتهي أخيرًا صراع المدّ والجزر بتنازل ماري، سنة ١٩١٤، عن رغبتها الجسديّة "بعد أن يتأكّد لها أنّ جبران لن يطاوعها [...]"[٢].

اطمأنّ جبران لماري واستقرّت العلاقة بينهما على أسس وطيدة. وكانت هي قد فكّرت، قبل ذلك، "أن تكتب شيئًا ثابت القيمة تتناقله الأجيال، عن فنّان كبير كان لها فضل كبير في تكوينه". هكذا راحت تسجّل في يوميّاتها، ومنذ العام ١٩١٠،كلّ شاردة وواردة في تفاصيل تعاطيها اليوميّ وإيّاه[٣].

لم يكتفِ جبران بالنشاط الأدبيّ والفنّيّ، بل تعدّاه إلى المجال السياسيّ. هكذا أسّس عام١٩١١ جمعيّة "الحلقات الذهبيّة". وكان دستور هذه الجمعيّة "يقضي بسرّيّة المقرّرات"، ويفرض التعاون الوثيق بين الأعضاء، فضلًا عن "التحلّي بالخلق الرفيع والتضحية المجرّدة". غير أن الجمعيّة التأمت مرّة واحدة وانحلّت بعدها لأنّ برنامجها لم يرضِ المغتربين[٤].

وفي أثناء إقامة جبران في بوسطن، في هذه الفترة الأخيرة من إقامته فيها، توالت المراسلات بينه وبين الرّيحاني. ففي ١١ تشرين الثاني ١٩١٠، يكتب إليه قائلًا: "أنا أفتكر بك [...] وأتكلّم عنك كلّما وجدت أذنًا نظيفة خليقة بأن تعي لفظ اسمك. وكم أكون سعيدًا عندما تجمعني بك الأيّام في مدينة واحدة [...]". وفي ٥ نيسان ١٩١١ يكتب للرّيحاني مجدّدًا راغبًا إليه في تعريفه على صديقه القديم

[١]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

[٢]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٤٩، ١٥٠.

[٣]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

[٤]. مرجع نفسه، ص ١٠١. وعن هذه الجمعيّة راجع أيضًا : جبر جميل، مرجع سابق، ص ١٠٠– ١٠٢.

"فرنك سانبرن" لأنّه (جبران) يريد أن يضيف صورته (سانبرن) إلى صور كبار مشاهير الأميركيّين الذين كان يهتمّ بتصويرهم في ذلك الوقت. وبعد مرور فترة زمنيّة تقارب الشهر على هذه الرسالة (مطالع أيّار)، يقرّر جبران الانتقال إلى نيويورك لمتابعة أعماله الفنّيّة والأدبيّة فيها[١].

نيويورك

كان جبران يهفو إلى الإقامة في نيويورك بعد رجوعه إلى بوسطن، قادمًا من باريس. فآفاق بوسطن، على رحابتها، بدأت تضيق في وجهه. لكنّه كان يخشى الانتقال إليها لأنّ الأسباب التي أرغمته على البقاء في بوسطن ما زالت قائمة: أخته مريانا وعدم رغبته في تركها وحيدة أكثر ممّا تركها حتّى الآن، والضائقة المادّيّة التي ما برحت ممسكة به. هذا فضلًا عن خشيته من تحوّل ماري عنه إن هو غادر. لكن يبدو أنّ "وجود الرَّيحاني في نيويورك... كان سببًا مهمًّا لخليل لنشوء شعور جديد لديه بالاستقرار ولتوثيق أواصر الصداقة بينهما"[٢]. وأخيرًا حسم جبران أمره وانتقل إلى حيث يقيم صديقه الرَّيحاني.

في منزل الرَّيحاني

أقام جبران في حيّ "غرينتش فيلاج" القديم من أحياء نيويورك السفلى. و"في بناية قديمة من الآجرّ الأحمر (تُعرف ببناية الستديو)، تحت رقم ٥١ من الشارع العاشر غربًا، اتّخذ له محترفًا جعله كذلك مسكنًا"[٣]. وفي ١٦ أيّار يخبر جبران ماري أنّه انتقل للعيش "في منزل الرَّيحاني الكائن في West 9th Street, 28 في مانهاتن السفلى في نيويورك"، وأنّه اتخذ لنفسه غرفة في "المنزل القديم" الذي يقيم فيه الرَّيحاني، وأنّه يقوم بعمله في الرسم "في غرفة شاغل المنزل الكبيرة. وفي رسائل سابقة لهذا التاريخ، تتراوح فترتها الزمنيّة بين ٣ أيّار و١٠ منه، يخبرها عن عزمه وضع رسم "لرأسه الرائع"، وأنّه أنجز هذا الرسم الذي يعتبره "أفضل عمل فنّيّ" له منذ رجوعه من باريس[٤].

يقدّر د. الرَّيحاني الفترة الزمنيّة التي استغرقتها إقامة جبران في منزل صديقه الرَّيحاني في نيويورك بأربعة عشر شهرًا تبدأ "في أوائل أيّار/ مايو ١٩١١، تاريخ مجيء جبران من بوسطن إلى نيويورك، وتنتهي في اواخر حزيران / يونيو ١٩١٢، تاريخ سفر الرَّيحاني إلى لبنان لبضعة أشهر". هذه الفترة غنيّة جدًّا، وفي بداياتها شاء جبران أن يعرّف الرَّيحاني إلى شارلوت تلر وهي كاتبة أميركيّة صديقة لماري هاسكل، وقد تحقّق له ذلك. وفي بداياتها أيضًا قامت ماري بزيارة نيويورك، وتعرّفت إلى الرَّيحاني خلال عشاء أقامه جبران وشاركتهم

[١] . الريحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص١٩٦– ١٩٧.

[٢] . مرجع نفسه، ص ١٩٧.

[٣] .نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٣٦. راجع أيضًا: جبر، جميل، ص ١٠٢، والحلو اللحّام ص ١٠٢.

[٤] . الريحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص ١٩٨، ١٩٩.

فيه شارلوت. شهدت هذه الفترة أيضًا قيام ما أسماه د. الرَّيحاني ب"الحلقة الرباعيّة" وأركانها، فضلًا عن الرجلين، ماري هاسكل وشارلوت تلر، لكنّها لم تعش غير بضعة أشهر. في هذه الفترة أيضًا يقوم كلّ منهما بتعريف الآخر على أهمّ أصدقائه: الشاعر إدوين ماركهام، والناقد ريتشارد لو غايين، فضلًا عن Michael Monahan صاحب مجلّة The Papyrus وآخرين[1]. في هذه الفترة كذلك أنجز الرَّيحاني "كتاب خالد" ووافقت على نشره إحدى أبرز دور النشر الأميركيّة. وكان جبران قد قرأ الكتاب ووضع له سبعة رسوم لقاء مبلغ قدره خمسون دولارًا أميركيًّا دفعته دار النشر له. صدر الكتاب وبقي، لبضعة أشهر، شغل الأربعة الشاغل. ومع هذا الصدور، وبعده، بدأت الأمور تتغيّر، "والصداقة المتينة التي قامت بين الرَّيحاني وجبران طوال أعوام بدأ يعكّر صفوها... شؤون نسائيّة تبعتها مشاريع أدبيّة وسياسيّة متباينة"[2]. هكذا قُدّر لسلسلة "الحلقة الرباعيّة" أن تنقطع ، فتباعد ما بين شارلوت وأمين، وما بينه وبين جبران، ووحدها العلاقة بين الأخير وماري استمرّت في النموّ.

جبران ومي زيادة

تبادل جبران ومي زيادة عددًا وافرًا من الرسائل. وفي رسائله إليها يخصّها بأمور لم يبح بها لسواها. وأُولى المراسلات بدأتها مي في ١٢ أيّار عام ١٩١٢، واستمرّت بينهما حتّى أواخر حياته. ولا ريب أنّ مي، قبل هذا التاريخ، كانت تتابع نتاج جبران باهتمام بالغ، ويقع من نفسها موقعًا ممتازًا، سيّما وأنّ الحديث في صالونها الأدبيّ في القاهرة دار مرارًا حوله. ويبدو أنّها حسمت أمرها وكتبت إليه بعد صدور الأجنحة المتكسّرة.

ثمّة تضارب كبير، بين الباحثين، في حقيقة العلاقة التي ربطت جبران ومي، عن بعد ودونما لقاء بينهما. فبعضهم يرى، كغازي براكس، أنّ ما اجتذب مي إلى جبران ليس غير "حاجتها الملحّة إلى شقيق لروحها تبثّه مكنوناتها ولواعجها"، وأنّ ما اجتذب جبران إليها ليس غير حاجته إلى "نفس مشابهة لنفسه، بل قل لنفس أمّه، بغربتها الروحيّة وميلها إلى الوحدة". ويرى غيره، كعبد المسيح حدّاد، أنّ جبران معجب بها كأديبة فقط، ولم يكن يُكِنّ أيّة عاطفة حبّ نحوها. وحقيقة الأمر أنّ علاقتهما ليست أدبيّة فقط، بل تسودها مشاعر عاطفيّة متسامية تظهر ملامحها جليّة في ما تتضمنّه الرسائل المتبادلة بينهما[3].

أجنحة متكسّرة ودمعة وابتسامة

"الأجنحة المتكسّرة" هو رواية حبّ جبران الأوّل في لبنان يوم كان طالبًا في مدرسة الحكمة في بيروت، وبطلتها هي حلا الضاهر تحت اسم سلمى كرامة. ولقد شكّل صدور الكتاب، سنة ١٩١٢، حدثًا بارزًا في الأقطار العربيّة، واحتدم النقاش حوله بين متحمّس مؤيّد

[1] . الرّيحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص ١٩٩، ٢٠٠.

[2] . مرجع نفسه، ص ٢٠١. لمزيد من التوضيح حول هذه الناحية يُراجع المرجع نفسه من ص ٢٠٣- ٢١٢.

[3] براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٥٤، ١٥٥؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١١١. ويُحدّد جبر ١٢ آذار، وليس ١٢ أيّار، تاريخًا لأُولى الرسائل التي وجّهتها ميّ إليه.

وآخر مستهجن معارض. وأكثر ما يهمّنا من هذه المسألة، هنا، أنّه كان سببًا في تعارف جبران برجلين رافقاه، كصديقين، طوال العمر: نسيب عريضه وميخائيل نعيمة. نسيب كان يُصدر مجلّة "الفنون" يعاونه مواطنه عبد المسيح حدّاد. أمّا نعيمة فكان في جامعة واشنطن، يتابع دراسته، يوم قرأ الكتاب ووقع من نفسه موقعًا حسنًا، فكتب مقالته "فجر الأمل بعد ليل اليأس" ونشرها في "الفنون"[١]. وبعد سنتين، أي في سنة ١٩١٤، صدر "دمعة وابتسامة". يضمّ الكتاب ستًّا وخمسين قطعة كان جبران قد نشرها في جريدة "المهاجر"، فعمد نسيب عريضه إلى جمعها ونشرها بموافقة جبران، وخصّ نعيمة بنسخة منه. ثمّ راح عريضه ومعاونه في إدارة "الفنون" يلحّان على نعيمة، الذي كان قد أنهى دراسته في جامعة واشنطن، بالقدوم إلى نيويورك ومعاونتهما في العمل. فأمّ نعيمة المدينة في خريف العام ١٩١٦ ، وبعد ظهر النهار الذي وصل فيه التقى جبران في إدارة الفنون، وكان اللقاء الأوّل بينهما[٢].

جبران ونعيمة

يبادر نعيمة إلى وصف جبران إثر لقائهما الأوّل في إدارة "الفنون". إنّه "لطيف الملامح، دون الربع من القامة، عليه بذلة رماديّة وبرنيطة من الجوخ الأسود، مستديرة "السقف" مسطّحته، وفي يده عصًا كرويّة الرأس معشّقة في أعلاها بأسلاك فضيّة نحيفة". لم يكن الرجلان قد التقيا من قبل، لكنّهما في لقائهما الأوّل تصافحا بحرارة وتصادرا كأخوَين "شتتهما البعد ثمّ عادت الأقدار فجمعتهما". وبعد أيّام قليلة ذهب نعيمة، يرافقه نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد، لقضاء سهرة عند جبران بدعوة منه. وهنا نرى نعيمة يفصّل في وصف محترف جبران المعروف باسم "الصومعة": البناء القديم، والممرّات–السراديب، والسلالم الخشبيّة اللولبيّة المؤدّية إلى الطبقة الثالثة والأخيرة حيث هو، فضلًا عن الطول والعرض والمحتويات: الموقد والسرير وقنديل الغاز ومنصب التصوير ومَحافظ الكرتون الأسود. أضف إلى ذلك الشبابيك والستائر السود والمخدع الضيّق وما فيه... وقد رأى نعيمة فيها ما ينمّ عن فقر شاغلها أكثر ممّا ينمّ عن زهده وتنسّكه. هذه "الصومعة" التي دخلها نعيمة للمرّة الأولى في تلك الليلة، سيُقدَّر له أن يدخلها عددًا آخر من المرّات قد لا يُحصى، وعلى مدى خمسة عشر عامًا كان آخرها عام ١٩٣١[٣].

---

[١]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٠٦، ١٠٩، ١١٠؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٤٩، ١٥٠. ويُشار إلى أنّ نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد هما من مدينة حمص، وكانا قبل ذلك من رفاق نعيمة في دار المعلّمين الروسيّة في الناصرة. وقد قُدّر له أن يعود ويلتقيهما في نيويورك في مقرّ مجلّة "الفنون" وفي إطار نشاط الرابطة القلميّة الي ضمّت الثلاثة، فضلًا عن آخرين (مرجع نفسه، ص ١٤٩).

[٢]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١١٧، ١١٨؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٥٠.

[٣]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٥٢– ١٥٤.

الكاتب الإنكليزيّ

كان جبران يدرك أنّه لا بدّ من الانتقال إلى الكتابة باللغة الإنكليزيّة كي يتسنّى له الانتشار المطلوب في العالم الأميركيّ الشاسع والغنيّ الثقافة. تلك هي أمنيته وقد بدأت تراوده منذ زمن، وأمنية ماري وآخرين من أصدقائه الأميركيّين[١]. لذلك راح يُعدّ العدّة المطلوبة لهذا الانتقال، ويمهّد له بما يلزم من إكباب عليها. ومن الطبيعيّ ألّا يتمّ له ذلك دفعة واحدة، بل اقتضاه بذل جهد متواصل أعانته فيه ماري التي بقيت على دأبها هذا حتّى نهاية المطاف.

أوائل العام ١٩١٨ أسهم جبران في إدارة مجلّة "الفنون السبعة" الإنكليزيّة التي صدر العدد الأوّل منها في ذلك التاريخ، وفيه قصيدة منثورة بقلمه. ولمّا التقى نعيمة جبران، في الفترة ذاتها، قرأ القصيدة وأعجبه أسلوبه الإنكليزيّ. وفي ذلك اللقاء قرأ له جبران أمثالًا وقصائد دخلت كلّها في كتاب "المجنون"، ومنها قصيدته المنثورة: "الليل والمجنون"[٢]. صحيح أنّ مجلّة "الفنون السبعة" لم تعمّر إلّا بضعة شهور، ولم تترك أثرًا حاسمًا، إلّا أنّها شجّعت جبران على الكتابة بالإنكليزيّة، وحضّته على إتقانها بمعاونة ماري الحثيثة، وأعطته نماذج من نتاجه يعرضها في الأندية الأدبيّة. يُزاد على ذلك أنّها فتحت أمامه قناة الاتّصال بجمعيّة الشعر النيويوركيّة التي أتاحت له أن يلقي، في أحد اجتماعاتها، شيئًا من نتاج قلمه[٣].

المجنون والمواكب

بعد تجربة جبران في "الفنون السبعة" راح يكتب بالإنكليزيّة، وهجر الكتابة بالعربيّة إلّا قليلًا. وما نشره من بعد، في هذه الأخيرة، كـ"المواكب" و"العواصف" و"البدائع والطرائف"، يمكن اعتباره من نتاج المراحل السابقة[٤]. وما قرأه لنعيمة، وأشرنا إليه في الفقرة السابقة، فضلًا عمّا عاد وأضافه إليه– وبعضه ترجمة لأمثال عربيّة وبعضه موضوع– صدر كلّه، عام ١٩١٨، مزيّنًا بالرسوم المجازيّة في أوّل كتبه الإنكليزيّة ذات الغلاف الأسود وهو كتاب "المجنون". ولعلّ مجنون جبران هذا، حامل اسم كتابه، هو نيتشه نفسه. ومعلوم ما تركه كتاب الفيلسوف الألمانيّ "هكذا تكلّم زرادشت" من تأثير عميق في الفكر الجبرانيّ. ففي مقالة "العبوديّة" مثلًا، والتي سيتضمّنها كتاب العوصف الصادر عام ١٩٢٠، يختمها جبران بسؤال يوجّهه إلى الحرّيّة –وقد رأها "شبحًا هزيلًا يسير منفردًا محدّقًا إلى وجه الشمس"– قائلًا: "وأين أبناؤك"، فتجيبه: "واحد مات مصلوبًا [يسوع المسيح]، وواحد مات مجنونًا [فريدريك نيتشه]، وواحد لم يولد بعد"[٥]. ولعلّ جبران شاء، عن قصد أو عن غير قصد، أن يودّع التأثير النيتشويّ عليه بنوع من عرفان الجميل المضمَر تجاه فريدريك

---

١. مرجع نفسه، ص ١٥٧.

٢. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٥٨؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٢٣.

٣. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٢٣؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٥٨، ١٥٩.

٤. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٢٣.

٥. جبران، جبران خليل، **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران العربيّة**، دار الجيل، بيروت، [د.ت.]، ص ٤٣٨.

نيتشه، وبما يليق بهذا الرجل من تحيّة إجلال وإكبار، إنّما على "الطريقة الجبرانيّة" الجديدة التي ظهرت ملامحها واضحة في هذا الكتاب. صدر "المجنون"، إذًا، واستقبلته الأوساط الثقافيّة الأميركيّة استقبالًا جيّدًا، وتُرجم "السِّفْر الصغير الذي لا تزيد صفحاته على السبعين"، مباشرة بعد صدوره، إلى الفرنسيّة والألمانية والإيطاليّة والإسبانيّة[١].

بعد "المجنون"، راح جبران يُعدّ العدّة لإصدار قصيدته "المواكب". وفي أواسط أيّار عام ١٩١٨ زاره نعيمة في "صومعته"، فقرأ له القصيدة، ثمّ بدأ يعرض عليه الرسوم التي أعدّها لها. وقد وجد نعيمة، في تلك الرسوم، "مواكب من الحياة كانت أشدّ فعلًا في نفس[هـ] وأبعد أثرًا في خيال [هـ] من المواكب التي ساقها أمام عيني [هـ] في حلل من الكلام الموزون"[٢]. وصدرت "المواكب" عام ١٩١٩، وليس عام ١٩١٨ كما أشار جميل جبر، أنيقة الإخراج، ومزيّنة بالرسوم التي أسهب نعيمة في وصفها والغوص في أعماقها، ومنها رسم الدين والعدل والحرّيّة وسواها. وقد قدّم نسيب عريضه للمواكب شارحًا وموضحًا[٣].

الرابطة القلميّة

كان قد تحلّق حول "الفنون"، مجلّة نسيب عريضه ومساعده عبد المسيح حدّاد، كوكبة من الكتّاب اللبنانيّين والسوريّين المهجريّين لأنّها شكّلت لهم "بوقًا صافي الصوت" ينفخون فيه أرواحهم. "وكانت إدارتها ملجأً لشوارد" آرائهم، "وجوًّا فسيحًا" تلتقي فيه أحلامهم بآمالهم. ولمّا محت الحرب العالميّة الأولى اسمها من "سجلّ الصحافة"، كانت لهم "السائح"، وهي جريدة نصف أسبوعيّة أسّسها عبد المسيح حدّاد وبدأت بالصدور عام ١٩١٤[٤]. ومن هذه "العصبة" من الكتّاب تألّفت النواة الأولى "للرابطة القلميّة" التي كان لنتاج أعلامها أبعد الأثر في النهضة الحديثة.

في كتابه عن جبران، يورد نعيمة وقائع كثيرة من الجلسات التأسيسيّة للرابطة القلميّة كما دوّنها بخطّ يده. ففي العشرين من نيسان عام ١٩٢٠، وخلال "ليلة أحياها صاحب "السائح" وإخوانه في بيتهم"، وحضرها "رهط" من الأدباء والأصحاب، تداولوا في ما يمكن لهم فعله "لبثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربيّ وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوّة فعّالة في حياة الأمّة". وقد استحسن الحاضرون اقتراح أحدهم القائل بضرورة أن تكون لأدباء المهجر رابطة تعضد مسعاهم في هذا السبيل، وأقرّوا مباشرة السعي تحقيقًا لهذا الغرض. والأدباء الحاضرون، تلك الليلة، كانوا: جبران، نعيمة، نسيب عريضه، وليم كاتسفليس، رشيد أيّوب، عبد المسيح حدّاد، ندره حدّاد. فما كان من جبران إلّا أن دعاهم لعقد اجتماع في منزله في الثامن والعشرين من نيسان ١٩٢٠. حضر

---

[١] . جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٢٤؛ ينج (كذا)، بربارہ، مرجع سابق، ص ٢٨. يرى كثير من الباحثين أنّ "المجنون" يشكّل بداية مرحلة جديدة في الفكر الجبرانيّ هي المرحلة "الإيجابيّة البنّاءة"، والتي ستستمرّ في مؤلّفاته التي ستليه؛ كما كانت كتاباته التي عاد وضمّها كتاب "العواصف" ختام المرحلة "السلبية الهدّامة" لديه.

[٢] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٦٣– ١٧٠.

[٣] . جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٢٥.

[٤] .نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٧٤، ١٧٥.

ذاك الاجتماع، فضلًا عن الأسماء السبعة المذكورة، الياس عطاالله. وأقرّ المجتمعون إنشاء جمعيّة تُدعى "الرابطة القلمية" وبالإنكليزيّة Arrabitah، على أن يكون لها رئيس ويُدعى "العميد"، وكاتم سرّ ويُدعى "المستشار"، فأمين صندوق ويُدعى "الخازن". أمّا أعضاؤها فثلاث طبقات: عاملون ويُدعوَن "عمّالًا"، ومناصرون ويُدعَون "أنصارًا"، فمراسلون. ووكل الحاضرون مسألة تنظيم قانون الرابطة إلى نعيمة. وانتخبوا بالإجماع: جبران عميدًا، ونعيمة مستشارًا، ووليم كاتسفليس خازنًا[1].

نظّم نعيمة القانون ووضع مقدّمة له. وبادر جبران إلى رسم شعار جميل لها، وفي أسفله اسم الرابطة وعنوانها وهو نفسه عنوان إقامة جبران في نيويورك. وبعد أن تناول نعيمة بالوصف شعار الرابطة، يضيف شارحًا أنّ الشعار كان الحدّ الذي وقفت عنده الرابطة "في مشابهتها جمعيّة منظّمة". لقد كانت روحًا "وظلّت كذلك كلّ حياتها. وقطّ لم تكن "جمعيّة" بمعنى هذه الكلمة المألوف". وبعد ذلك راحت كتابات "عمّالها" تنُشر على صفحات "السائح"، وتحت عنوان كلّ منها اسم المؤلّف متبوعًا بهذا التعريف: "العامل في الرابطة القلميّة". وكان من عادات تلك الصحيفة أن تتحف قرّأها، أوائل كلّ عام، بعدد ممتاز من أعدادها هو ثمرة جهد مشترك بين جميع عمّالها، ويستقبله العالم العربيّ كحدث خطير، وتتناوله الصحف بالنقد والتعليق، "وتنقل عنه الشيء الكثير"[2].

إنّ ما يورده نعيمة عن الرابطة ودورها "والعاملين" فيها يتقاطع، في نواحٍ كثيرة منه، مع ما يورده آخرون عاصروا تلك المرحلة، أو كانوا من صانعيها. لكنّه يغفل أمورًا عديدة هامّة كشفتها التنقيبات، مؤخّرًا، في موادّ "الفنون" وكتّابها، ولا بدّ من الوقوف عند اليسير منها استيفاءً لصورة الرابطة بعض الشيء. هذه التنقيبات أجراها الباحث الأميركيّ د. ريتشارد ألان بوب، ونشرها عام ٢٠٠٢ في كتاب له، وإليها استند د. أمين ألبرت الرَّيحاني في دراسته الصادرة عام ٢٠١٣ بموضوع: "بين الرَّيحاني وجبران: القِصّة الكاملة" والمنشورة في كتابه: "تجاوز الحطام"، وقد سبقت الإشارة إليه.

أُعلنت الرابطة، رسميًّا، في ٢٨ نيسان ١٩٢٠، كما ذُكر آنفًا. "لكنّها كانت مُعلنة عفويًّا منذ العام ١٩١٦ على صفحات مجلّة الفنون... إذ كان معظم أعضائها ينشرون في تلك المجلّة ويوقّعون أسماءهم مُلحَقةً بعبارة "عضو الرابطة القلميّة". وفي عداد هؤلأء أمين الرَّيحاني في مقاله المنشور "في الجزء الثاني من السنة الثانية من الفنون، عدد تمّوز/ يوليو ١٩١٦. والمقال موقّع باسم الرَّيحاني مُلحَقًا بعبارة "عضو الرابطة القلميّة" "[3].

---

[1] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٧٥، ١٧٦.

[2] . مرجع نفسه، ص ١٧٧، ١٧٨. ونشير إلى أنّ عدد أعضاء الرابطة بلغ العشرة. ففضلًا عن الأسماء الثمانية المذكورة في المتن، يُضاف إليها اسما إيليّا أبو ماضي ووديع باحوط.

[3] . الرّيحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص٢٠٩.

وما لم يكن معلومًا من قبل، وتوضحه دراسة د. الرَّيحاني، أنّ كتّاب الرابطة زمن "الفنون"، ينقسمون مجموعتين ثقافيّتين: الأولى بزعامة جبران يناصره: نعيمة ونسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد وندرة حدّاد وسواهم، وهي متأثّرة بالآداب الأوروبيّة والروسيّة. والثانية بزعامة الرَّيحاني يعاضده: الشيخ سليم يوسف الخازن، وحنّا خبّاز، وفيليب الخولي، وحنّا عبدالله نصر، والياس صبّاغ، وسواهم، وهي متأثّرة بالآداب الأميركيّة. ولقد كان لأعلام هذه المجموعة استقلاليّتهم الثقافيّة، فضلًا عن شخصيّتهم المميّزة. وكان الرَّيحاني يمثّلهم في نطاق الرابطة وخارجها، وفي نطاق مجلّة الفنون وخارجها. ويمضي د. الرَّيحاني في البناء على هذه المعطيات الجديدة، فيدرك بعدًا تفصيليًّا جديدًا آخر، فيتساءل هل أنّ "الرابطة القلميّة مرّت بمرحلتين: رابطة "أولى" على صفحات مجلّة الفنون بين ١٩١٣ و١٩١٨ بزعامة كلّ من الرَّيحاني وجبران، ... ورابطة "ثانية" عام ١٩٢٠ بزعامة جبران وحده؟"[١]. ويجيب د. الرَّيحاني عن تساؤله، استنادًا إلى مؤلَّفَين بالإنكليزيّة صادرين مؤخّرًا في بريطانيا يخصّص كلٌّ منهما فصلًا عن الرابطة القلميّة، وإلى مؤلَّف ثالث آخر بالعربيّة صادر في بيروت، فضلًا عن رسائل جبران إلى الرَّيحاني ورسائله إلى ماري هاسكل؛ بأنّه "يمكن الإشارة بعد اليوم، وبوضوح أكثر، إلى... الرابطة القلميّة "الأولى" بزعامة أمين الرَّيحاني، والرابطة القلميّة "الثانية، بزعامة جبران خليل جبران"[٢].

العواصف والسابق

في العام ١٩٢٠ صدر لجبران كتاب "العواصف" بالعربيّة، وهو مجموعة مقالات وأقاصيص ظهرت في صحف ومجلّات عديدة بين العامين ١٩١٢ و١٩١٨. وقد حافظ في اختيارها وجمعها بين دفتَي هذا الكتاب "على الألفة المعنويّة أو الوحدة الفنيّة بينها". تولّت "دار الهلال"، لصاحبها إميل زيدان، طباعة الكتاب ونشره. وكان جبران يستحسن الحلّة التي صدر بها "دمعة وابتسامة" من قبل، فشاء "للعواصف" أن يكون على هيئته: في "جنس حروفه (اسطنبولي جنس أوّل)، وقصر سطوره وطول صفحاته...". كما شاء أيضًا أن يخطّ العنوان نجيب بك هواويني– خطّاط مصر الشهير– بالحرف الفارسيّ[٣]. وبالفعل، فقد صدر الكتاب بالحلّة البهيّة التي أرادها مؤلّفه، وأحدث زوبعة في الشرق العربيّ. إلّا أنّ "العواصف"، وإن كان يمثّل ذروة التمرّد الجبرانيّ، فإنّه يمثّل كذلك نهاية مرحلة ويمهّد لبداية مرحلة في تطوّر الفكر الجبرانيّ.

بعد "العواصف" بقليل، وفي العام ذاته، صدر "السابق" بالإنكليزيّة، وهو مجموعة أخرى من الحكايات والأمثال، فضلًا عن قصائد منثورة تتناول– في معظمها– شقاء الروح في عالم المادّة، وتوقها الدائم إلى عناق الروح الكونيّة الشاملة. وقد شاءه جبران، على ما يظهر، تمهيدًا لكتابه "النبيّ". ويرى الكثير من الباحثين أنّ تسمية الكتاب ربّما كانت مستمَدَّة من سبق يوحنّا المعمدان للمسيح .

---

[١] . الرَّيحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص ٢٠٩، ٢١٠. وللمزيد حول هذه الناحية يُراجع المرجع نفسه في الصفحات: ٢١٠– ٢١٢.

[٢] . مرجع نفسه، ص ٢١٧، ٢٢٠.

[٣] . جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٣٢.

بعد "السابق" وقبل "النّبيّ"

في العام التالي، ١٩٢١، أصدر جبران "إرم ذات العماد" وهي مسرحيّة تجسّد نظريّة الحلوليّ المتصوّف في الإنسان والحياة والكون. وفي بدايات العام ١٩٢٣ صدر في مصر كتابه "البدائع والطرائف" الذي انتهت معه سلسلة كتبه العربيّة. والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات لعلّ أبرزها: "القشور واللباب"، و"وعظتني نفسي"، و"لكم لبنانكم ولي لبناني". وقد زيّن الكتاب بطائفة من رسومه لبعض عظماء فلاسفة العرب وشعرائهم القدامى. وممّا تذكره "ينج" (كذا)، في كتابها، أنّ جبران وضع هذه الرسوم وهو في السابعة عشرة من عمره، وأنّ رسم ابن سينا مطابق "لصورة ليوناردو دي فنتشي، لأنّه كان يعتقد أنّ وجه الشبه بينهما عظيم"[١].

النّبيّ

ما كاد جبران ينتهي من "السابق" حتّى راح يفكّر بكتاب جديد يكون "لاحقًا" له. وفي لقاء له ونعيمة، يسأله الأخير عن "لاحقه" هذا فيخبره بأنّه قد بدأ بأوّل قطعة منه ولم ينتهِ منها بعد، وأنّه يملأ كلّ حياته: ينام وإيّاه، ويقوم وإيّاه، ويأكل ويشرب وإيّاه[٢].

ولكتاب "النبي" قصّة مشوّقة جدًّا تستغرق شطرًا كبيرًا من حياة جبران، وقد ذكرها العديد من الدارسين الذين تناولوا جبران بالدراسة. فبرباره يانغ تزعم أنّه وضع المسوّدة الأولى للكتاب بعد عامين على وصوله إلى بيروت للالتحاق بمدرسة الحكمة. وفي العشرين من عمره قرأ هذه المسوّدة لأمّه في بوسطن، ثمّ طواها بناءً على نصحها. وفي الخامسة والعشرين أعاد كتابتها وطواها أيضًا بعد أن قرأها لنفسه. وبعد سنوات عشر، وخلال إقامته في نيويورك، "كتب الصورة الإنكليزيّة الأولى لذلك الكتاب الخالد... ولم تكن هذه الصورة ترجمة من النسخة العربيّة، لكنّها كانت صورة إنكليزيّة مبتكرة، وقد أعاد كتابته بيده خمس مرّات في خمس سنوات متوالية كاملة، قبل أن يُوضع في يد الناشر"[٣].

وكان من عادة جبران "أن يكتب في كرّاسات بنيّة اللون، ولم يغيّر هذا اللون منذ أيّام التلمذة إلى آخر حياته. وكان يبدأ كلّ كرّاسة عادة بعبارة يكتبها بالعربيّة". وقد خطّ كتاب "النبي" على كرّاسين، وكتب في الأوّل منهما: "أيّها الأخ... إنّ المشكلة التي آلمتك آلمتني"، وفي الثاني: "أللهمّ أَعِنّي على التعبير عن الحقّ بما يسطّره قلمي من آيات الجمال في هذه الكرّاسة"[٤].

---

[١]. ينج (كذا)، برباره، مرجع سابق، ص ٢٦؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص١٤٤؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.

[٢]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٨٤.

[٣]. ينج، برباره، مرجع سابق، ص ٢٨-٣٠؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٥٣.

[٤]. مرجع نفسه، ص ٣٠.

ولقد اختار جبران لكتابه قالبًا صياغيًّا فريدًّا جدًّا، فوضع الكلام على لسان حكيم فائق الحكمة، ورفعه إلى مصافّ الأنبياء مرّة واحدة، وجعل سامعيه يتوجّهون بمخاطباتهم إليه قائلين: "يا نبيّ الله". وإنّ في "انتقاء الاسم وحده ما يحمل على التجلّة والاحترام. وهكذا، بكلمة واحدة، رفع جبران الفنّان قيمة شعر جبران الشاعر إلى مستوى النبوءَة حتّى قبل أن يفوه به"[١].

وبيّنٌ أنّ جبران، في قالبه الصيّاغيّ هذا، قد استوحى الكتاب االمقدّس بعهدَيه القديم والجديد، واستعار من الإنجيل بعض "القوالب اللفظيّة"، ومنها على سبيل المثال: "الحقّ الحقّ أقول لكم"، و"لقد قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم...". هذا فضلًا عمّا استأنس به من أسلوب نيتشه في كتابه "هكذا تكلّم زرادشت". ومعلوم ما كان للفيلسوف الألمانيّ فريديريك نيتشه، ولكتابه المذكور، من أثر عميق في الفكر الجبرانيّ وفي توجيه تمرّده وثورته، لاسيّما في كتابه "العواصف" وقبله. ومعلوم كذلك كيف خفت تأثير نيتشه و"زرادشته" مع مرور الوقت، وكيف خبا أو كاد يخبو في النَّفَس الجبرانيّ قُبَيْل "المجنون" وبُعَيده مباشرة[٢].

وضع جبران لكتاب "النبي" اثني عشر رسمًا، "عشرة منها بالأدهان المائيّة واثنان بالرصاص، وهما رسم المصطفى في أوّل الكتاب و"اليد المبدعة" في آخره". ويرى نعيمة في رسوم "النبي" رموزًا بعيدة، وانسجامًا فنيًّا بديعًا. لكنّه يأخذ عليها أنّ "في تقاطيع بعضها نعومة تبلغ درجة من الاسترخاءِ والأنوثة قد تستحبّها في فنّ امرأة ألّا أنّك تستهجنها في فنّ رجل"[٣].

صدر "النبي" في الثلث الأخير من العام ١٩٢٣، وطُبع منه ألف وثلاثماءة نسخة نفدت جميعها من المكتبات في غضون شهر واحد[٤]. وبعيد صدوره، وإثر تسلّم ماري هاسكل نسخة منه، كتبت إلى جبران متوقّعة، بحسّ رؤيويّ، ما سيمثّله الكتاب في الأدب الإنكليزيّ وللأجيال البشريّة: "سيُعتبر هذا الكتاب كنزًا من كنوز الأدب الإنكليزيّ، وسنفتحه في ظلماتنا للإهتداء إلى أنفسنا، ولإيجاد السماء في داخلنا، وستغرف منه الأجيال البشريّة، ولن ينفد بل بالعكس سيكون الكتاب مرجعًا مفيدًا يعود إليه البشر جيلًا بعد جيل، وسيزدادون له حبًّا وتقديرًا مع تقدّم نضجهم أكثر فأكثر"[٥]. وعن "النبي" قال جبران في رسالته إلى صديقه حبيب مسعود في شباط ١٩٢٦، بعد سنوات ثلاث على صدوره: "كلّ ما أستطيع أن أقوله لك الآن في الكتاب الصغير (...) أنّه قد بلغ الطبعة العاشرة بالإنكليزيّة، وأنّه قد تُرجم إلى عشر لغات أوروبيّة، وإلى اليابانيّة والهندوستانيّة من اللغات الشرقيّة. أمّا رأي القوم في الكتيّب من وودرو

---

[١] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢١٤.

[٢] . نشير هنا إلى أنّ نعيمة يطيل في الكلام والمقارنة بين "زرادشت" نيتشه و"نبي" جبران (نعيمة، ميخائيل، مرجع سلبق، ص ٢١٥-٢١٩). وكان قد أطال، قبل ذلك، وبالغ في تقدير أبعاد الأثر النيتشويّ في فكر جبران ونتاجه الكتابيّ. وللمزيد حول هذه الناحية، تُراجع الصفحات التالية من كتابه: ١٣٧- ١٤٨.

[٣]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢١٩، ٢٢٠.

[٤] . الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ١١١.

[٥]. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ١١٢، نقلًا عن: **نبيّ الحبيب** (رسائل الحبّ بين ماري هاسكل وجبران مع مذكّرات هاسكل)، جمعتها فرجينيا حلو، عرّبها الأب لورانس فارس، راجعها يوسف الحوراني، دار الجريدة الأهليّة للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤، ص ١١٥.

ولسن، إلى أكبر شاعر إنكليزيّ، إلى أشهر كاتب فرنسيّ، إلى غاندي الهند، إلى العامل البسيط، وإلى الزوجة والأمّ، فمّما لم أنتظره قطّ. ولذلك أجد نفسي مخجولًا في بعض الأحايين أمام عطف الناس وكرمهم"[١].

حقّق "النبي" لجبران شهرة واسعة جدًّا في الغرب، لاسيّما في الولايات المتحدة الأميركيّة، وتُرجم إلى أكثر من ثلاثين لغة منها الفرنسيّة والألمانيّة والعبريّة والصينيّة. وأذاع الكتاب شهرة جبران خارج الأوساط الأدبيّة: في المنتديات والمحافل والجمعيّات والمسارح. ونشرت "السائح"، في أحد أعدادها، خبر قراءة "النبي" في إحدى الكنائس في نيويورك. ويروي نعيمة، بشيء من الاستهجان والاستغراب، أنّه حضر مع نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد، وبدعوة من جبران، حفل "قراءات" من كتاباته في كنيسة القدّيس مرقس في نيويورك، وهي كنيسة أسقفيّة في "الباوْرِي" ومن أقدم كنائس المدينة. ويدرج نعيمة مثل هذه الاحتفالات في سياق براعة جبران في بثّ "الدعاية اللطيفة" التي كان يمهّد بها لمؤلّفاته وأعماله[٢]. وفي هذه الكنيسة، "كنيسة سنت مارك في نيويورك"، قُدّر لبرباره يانغ أن تستمع "إلى فصل من كتاب "النبي"، عُهدت قراءته إلى "بطلر ديفنبورت" وهو من أشهر رجال المسرح". وكانت تلك المناسبة أولى الخطوات التي قادتها إلى قراءة "النبي"، ومن ثمّ إلى التعرّف بجبران. ومن أطرف ما روته يانغ عن "النبي" أنّ ناشره في هولندا، بعد ترجمته، لم يرسل لمؤلّفه، من عائدات البيع، غير أربعة وعشرين دولارًا أميركيًّا[٣].

"أطيان ومسقّفات"

بعد سنوات عدّة من قدوم جبران إلى نيويورك، طغت على الولايات المتّحدة الأميركيّة موجة من المتاجرة بالعقارات أسماها نعيمة "موجة المقامرة بالأطيان والمسقّفات". وخطر لجبران، وقد ادّخر مبلغًا ماليًّا معيّنًا، أن يجاري التيّار آملًا في تحسين أوضاعه الماليّة. لذلك أقدم، بمشاركة رجل "سوريّ"، على شراء مبنى في بوسطن، دفعا خمس ثمنه (عشرة آلاف دولار أميركيّ) نقدًا، وقسّطا الأخماس الأربعة الباقية. واضطرّا، فضلًا عن ذلك، إلى إجراء بعض التصليحات وإدخال بعض التعديلات عليه، ممّا ألزمهما دفع مبالغ إضافيّة. وفي نهاية المطاف، انقلبت الأمور عليهما، وتحوّلت الأرباح التي علّلا النفس بجنيها إلى خسارة فادحة. وبعد فترة ليست بطويلة، عاود جبران الكرّة وتعاطى هذه التجارة مجدّدًا، فابتاع أربعين حصّة من البناية التي يقيم فيها، وكانت صفقته رابحة هذه المرّة[٤].

---

[١]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٥٧.

[٢]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٢٤ — ٢٢٦. وحول موضوع تلاوة مقتطفات من كتب جبران في الكنائس والمعابد، يوضح مارون عبّود في كتابه "جدد وقدماء" (المطبعة التجاريّة، بيروت، ١٩٥٤، ص ٨٦)، أنّ تلك الكنائس كانت مسارح لا غير، وهي مسألة معروفة لدى الطوائف البروتستانتيّة على اختلاف أنواعها.

[٣]. ينج، بربارة، مرجع سابق، ص ٨، ٩.

[٤]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٤٨– ١٥٠؛ نعيمة ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٢٨، ٢٢٩. ويثبت نعيمة، في الصفحة ٢٩٥ من كتابه، نصّ رسالة بعث بها إليه من بوسطن مساء يوم خميسٍ من شباط عام ١٩٢٣ يخبره عن بعض معاناته جرّاء خسارته تلك.

ما بعد "النّبيّ"

١. رمل وزبد

بعد صدور "النبي" راح جبران يفكّر في كتاب جديد يصدره. لكنّه كان بحاجة لفترة استراحة واستكانة يتمكّن خلالها من استجماع أفكاره ليخوض بعدها غمار وضع مؤلّف جديد لا يقلّ شأنًا عنه، لاسيّما وأنّ صحّته تدهورت كثيرًا في هذه المرحلة من حياته، وبدأت قواه تخور أكثر فأكثر. فعمد إلى مجموعة خواطر كان قد كتب بعضها بالعربيّة ثمّ نقلها إلى الإنكليزيّة، وأضاف إليها مجموعة أخرى كتبها بالإنكليزيّة مباشرة. هذه الخواطر التي خطّ قسمًا منها بيده، وأملى القسم الآخر على برباره يانغ، صدرت أوائل كانون الأوّل عام ١٩٢٦ تحت عنوان "رمل وزبد"، فجاءت بمثابة "سدّ الفراغ" في حياته الكتابيّة، أو بمثابة "برزخ" يصل ما بين "النبي" والكتاب الذي سيصدر بعده [يسوع ابن الإنسان] ويكون في مثل أهميّته[١].

٢. يسوع ابن الإنسان

بعد "رمل وزبد" عزم جبران على وضع كتابين آخرين يكملان ما كان قد بدأه في "النبي" الذي يتناول علاقة الإنسان بالإنسان: الأوّل منهما يتناول علاقة الإنسان بالطبيعة وسيدعوه "حديقة النبي"، والثاني يتناول علاقة الإنسان بالله على أن يدعوه "موت النبي"، وهكذا تكتمل حلقات السلسلة في أبعادها الثلاثة: الإنسان، والطبيعة، والله الذي هو غاية الغايات [٢].

لكنّ جبران عدل عن عزمه هذا لبعض الوقت، وانصرف إلى إعداد كتابه عن يسوع. أمّا القالب التعبيريّ الذي اعتمده لسوق أفكاره فمبتكر ومختلف كليًّا عن ذاك الذى اعتمده في "النبي". لقد جعل معاصري يسوع يتكلّمون عنه، كلٌّ وَفْقَ مداركه ومنازعه. هكذا أدار الكلام على لسان سبعة وسبعين رجلًا وامرأة مِن بينهم مَن ذكرهم الإنجيل، وآخرين منهم ابتكرتهم مخيّلته الخصبة. ويختتم رجل من لبنان، بعد تسعة عشر جيلًا، الأحاديث عن يسوع، فتكتمل بذلك صورة يسوع التي أراد جبران إيصالها إلى الناس، وهي الصورة الحقيقيّة في نظره. وكعادته في كتبه السابقة، وضع لكتابه الجديد هذا طائفة من الرسوم بلغ معها ذرًى عالية جدًّا من فنّه الرفيع، منها: وجه يسوع وهو أوّل ما يقع عليه البصر في الكتاب، ووجه مريم المجدليّة، ووجه بطرس، وآخر ليوحنّا الحبيب. هذا فضلًا عن رسمين ملوّنيَن آخريَن أحدهما "شجرة الحياة"، والثاني يمثّل إنسانًا

---

[١]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٦٥؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

[٢]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٣٨؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٦٥.

راكعًا على سحابة تحيط به سلسلة حلقاتها أجساد بشريّة. صدر الكتاب خريف العام ١٩٢٨ وكان جبران حينها في بوسطن[١].

٣. آلهة الأرض

إنّه آخر ما نُشر لجبران من كتب وهو لا يزال على قيد الحياة. أنجزه أوائل عام ١٩٣١ وأطلع نعيمة على مخطوطته عندما زاره الأخير في هذه الفترة من ذاك العام. صدر في شهر آذار من العام نفسه، قبل نحو أسبوعين من وفاته. و"آلهة الأرض" قصيدة منثورة، ملحميّة الطابع، "ذات ثلاثة أصوات تمثّل ثلاثة أرواح أو آلهة، لكلّ منهم نزعته الخاصّة ونظرته في الناس وحياتهم. الأوّل إله عبوس كؤود ملّ الناس... وملّ جبروته وألوهيّته إلى حدّ أنّه بات ينشد العدم... والثاني إله يطيب له اللعب بالأرض وما عليها من حياة... أمّا الإله الثالث فيصغي إلى رفيقيه، وبصره تائه في الوادي يرقب فتًى وفتاة يرقصان للحبّ في الوادي"[٢]. يعبّر جبران، في "آلهة الأرض"، عن أهمّ نظراته في الكون والحياة وقد تخمّرت ونضجت بالتجربة والاختبار. فمجد الإنسان "لا يبدأ إلّا عندما تمتصّ شفاه الآلهة المقدّسة نسمته الهائمة على غير هدى... وكلّ ما هو بشريّ لا قيمة له إذا ظلّ بشريًّا"[٣]. وفي هذا الكتاب أيضًا لم يَحِد جبران عن العادة التي درج عليها، فوضع له اثني عشر رسمًا من أبدع ما أنتجته ريشته. وقد وجد فيها نعيمة، عندما أطلعه عليها جبران، قوّة قلّما رآها مجسّمة في فنّه إلى هذه الدرجة، هذا فضلًا عمّا فيها من الألفة والرشاقة وانسجام الألوان[٤].

٤. التائه

أرسل جبران مسوّدة "التائه" إلى ماري هاسكل لتقوم بتصحيحها، على جاري عادته في جميع كتبه الصادرة بالإنكليزيّة، قبل نحو شهر من وفاته. وعندما أدركه الأجل كانت المسوّدة لا تزال عندها ولم تفرغ من قراءتها بعد. صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٢ عن: A. Knopf, New York بعد وفاته بنحو أكثر من عام.

٥. حديقة النبيّ

كان جبران يعتزم إصدار هذا الكتاب كحلقة مُتَمِّمة لما سبق وأبداه من آراء حول علاقة الإنسان بالإنسان في "النبي"، ويتناول فيه علاقة الإنسان بالطبيعة، على أن يتبعه بثالث يعالج فيه علاقة الإنسان بالله؛ وقد سبق وأشرنا إلى ذلك. لكن،

[١] . نعيمة، ميخائيل، ص ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٧؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٧٢.
[٢] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٥٥، ٢٥٧– ٢٥٩.
[٣] . جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٧٥، ١٧٦.
[٤] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

ولأسباب غير معروفة، عدل عن مخطّطه هذا وعمد إلى وضع مؤلّفاته المذكورة آنفًا. وبعيد وفاته عُثر، في محفوظاته، على مدوّنات غير مكتملة وخواطر كان يعمل عليها بغية إنجاز كتابه هذا، فأخذتها برباره يانغ وأصدرتها عام ١٩٣٣ في كتاب بعد نحو عامين من وفاته. وثمّة تباين واضح في ما تذكره حول عملها على هذا الكتاب. ففي إشارة أولى لها تذكر أنّ جبران "كان قد أعدّ قطعه المختلفة، ولكنّه لم يربط ما بينها، ولا وضع تصميمًا لتأليفه"، وأنّ أشياء كثيرة قالها "عن "الحديقة" استيقظت ذكراها في ذهنها"، وأنّ عملها لا يتجاوز هذا الحدّ. وفي إشارة ثانية لها توضح أنّه بدا لها "وما يزال يبدو أنّ جميع الصفحات التي كان لا بدّ من أن [تكتبها] في حديقة النبي صدرت مباشرة عن وعي مُحدَّد مدرِك، فكانت، كما قال جبران، الشعر الذي هو كلمات لا بدّ منها في الموضع الذي لا بدّ منه"[١]. ممّا يفيد أنّ عملها لم يقتصر على مجرّد الربط، بل تعدّاه إلى حدّ الابتكار والتعديل.

مرض جبران ووفاته

ظهرت أعراض المرض على جبران في سنوات شبابه الباكر. وكان يزيد من حدّة هذه الأعراض إكبابه المضني على العمل المستمرّ من ناحية، وإسرافه في التدخين، وإفراطه في تناول القهوة والكحول، من ناحية ثانية. ففي صباح يوم من أيّام مطالع العام ١٩٠٧ أفاق وهو يشكو ألمًا. "لقد عاودته نوبة النقرس ثقيلة الظلّ، فأنّ وتلوّى..."، ولزم السرير في ذلك اليوم فلم يكتب ولم يرسم. وفرض الطبيب عليه وقاية صارمة رضخ لها على مضض. وفي رسالة له إلى صديقه جميل المعلوف– في العام ١٩٠٧– الذي سأله عن صحتّه في رسالة سابقة وجّهها إلى جبران، يقول: "صحّتي، كما تعهدها، مثل قيثارة بيد من لا يحسن الضرب عليها، تُسْمِعُه أنغامًا لا ترضيه"[٢]. وفي باريس عاوده المرض واشتدّت عليه الألآم، فقال لصديقه الحويّك: "أنا، لا ريب، سأموت قبلك [...] أرجوك [...] أن تضع على قبري أسدًا يزمجر"[٣]. وفي باريس أيضًا، ومن باب الوقاية، نراه يؤثر الحليب على الخمر مع الطعام[٤].

وتمرّ السنون مسرعة، وإذا بالداء يشتدّ عليه أكثر فأكثر. وها هو في رسالة له إلى نعيمة من بوسطن، أواخر صيف ١٩٢١، يقول: "مذ جئت هذه المدينة وأنا أنتقل من طبيب اختصاصيّ ألى طبيب اختصاصيّ، ومن فحص دقيق إلى فحص أدقّ..."[٥]. ويستمرّ، على الرغم من ذلك، في مغالبة الداء وهو يظنّه "رجفة في القلب تزول بالحماية والوقاية. لكنّها ما كانت تزول"، بل تتنوّع في أعراضها،

---

[١]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٣٦، ٣٧.
[٢]. جبر، جميل، ص ٥٥، ٥٧، ٦٠.
[٣]. براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٨٤، حاشية رقم ٣.
[٤]. جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٧٤.
[٥]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٢٠٣. وكان من عادة جبران، بعد انتقاله إلى نيويورك، قضاء فترة عيدي الميلاد ورأس السنة، فضلًا عن أيّام الصيف مع شقيقته مريانا في بوسطن. لذلك نراه يراسل نعيمة، المقيم في نيويورك، من تلك المدينة. (مرجع نفسه، ص ١٩٩).

وتشتدّ في أوجاعها، وهو يحسبها النقرس يفتك بمفاصله، أو نزلة قويّة تصيب أجهزته التنفّسيّة، أو علّة في القلب حين يعتصر الألم قلبه[١]. وهو، في معاناته تلك، لا ينفكّ مكبًّا على العمل، حاملًا قلمه وممسكًا بريشته.

وأخيرًا، وبعد معاناة طويلة، كشفت الأشعّة مكمن الداء لديه، فكتمه عن الجميع. وأشار عليه طبيب في بوسطن بضرورة إجراء عمليّة جراحيّة، وضرب له موعدًا لذلك. وفي الموعد المضروب، خرج جبران من منزله قاصدًا المستشفى، لكنّه عندما بلغ أسفل الدرج عدل عن الذهاب، ورجع مستسلمًا لمشيئة القدر. "وكان في عدوله صلابة، وفي استسلامه عتوّ. فهو لم يتذمّر قطّ من مرضه، ولم يشكُ دهره، ولم يقنط من حياته (...)"[٢].

أوائل العام ١٩٣١ جاءه نعيمة زائرًا بعد أن خاطبه بالهاتف مستفسرًا عن صحّته وطلب منه المجيء إليه. فألفاه في فراشه، وعليه علامات ضعف شديد لم يرها عليه من قبل. فطمأنه جبران قائلًا بأنّها لم تكن "إلّا وافدة قويّة". وقبل وفاته بأربعة أيّام جاءه عبد المسيح حدّاد عائدًا، فرأى الموت على وجهه وأصغى إليه في صوته. ولدى مغادرته، أعطاه جبران "بضعة دولارات" طالبًا منه أن يشتري بها "طاقة من الزهر" كي يقدّمها كسلام منه إلى أمّ أولاده. كان وكأنّه يوّدعهم وهم غافلون عن ذلك، وكانت "الأقدار تلملم خيوط حياته الأرضيّة" وهم يحسبون أنّها "ماضية في نسجها"[٣].

يوم الخميس في التاسع من نيسان قصدته برباره مستطلعة، فوجدته يعاني ألآمًا شديدة لم يعانِ مثلها من قبل. استدعت الطبيب الذي لم يرَ بأسًا لو قضى ليلته في البيت، فباتت ليلتها عنده. وفي صباح اليوم التالي، يوم الجمعة، اشتدّ عليه الألم فتمّ نقله إلى مستشفى "القدّيس فِنْسِنْتْ" بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، وبعد الظهر بقليل دخل في غيبوبة. وعند الخامسة والنصف من بعد الظهر، أبلغت بربارة نعيمة في مكان عمله، فحضر إلى المستشفى والتقاها أمام باب غرفة جبران[٤]. ولدى دخوله الغرفة ألفى جبران يعاني سكرات الموت الأخيرة: " الغرغرة تغور في الصدر ويبعد قرارها (...) والأنّات تتواهى وتتقطّع وتتباعد. ومعاون الطبيب يجسّ النبض من حين إلى حين في انتظار النبضة الأخيرة". وبعد قليل حضرت مريانا منتحبة، قادمة من بوسطن فور تلقّيها برقيّة تستدعيها إلى

---

[١]. مرجع نفسه، ص ٢٥٠.

[٢]. مرجع نفسه، ص ٢٥١.

[٣]. مرجع نفسه، ص ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦١.

[٤]. نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٣، ١٦. ومن جملة الاستفسارات التي طرحها نعيمة على بربارة، لدى وصوله، ما إذا كان أحد قد عرض عليه الاعتراف والمناولة، فأجابته بأنه أنكر أن يكون كاثوليكيًّا أمام الراهبة التي سألته عن ذلك، فانصرفت عنه. وأضافت أنّ كاهنًا سوريًّا أتاه بعد الراهبة، وهو في حال الغيبوبة، وناداه بأعلى صوته مرّات عدّة، ولما لم يجبه انصرف عنه. (مرجع نفسه، ص ١٦). وفي رواية أخرى، لغير نعيمة، يرد أنّ الخوري منصور اسطفان، من بلدة غوسطا، "الذي كان يدرّس العربيّة والترجمة في مدرسة الآباء اليسوعيّين في القاهرة، والذي كان يكتب في "الهلال" ويوقّع كتاباته فيها باسم "منصفان"؛ سافر إلى بروكلين في الولايات المتّحدة الأميركيّة بعد سيامته كاهنًا، وعرف جبران، وزوّده الأسرار الإلهيّة الأخيرة، وشهد وفاته (أبي ضاهر، جوزف، **فؤاد حبيش وزمن المكشوف**، منشورات جامعة سيدة اللويزة، زوق مصبح، ط.١، ٢٠١٦، ص ٢٢، حاشية رقم ٢).

نيويورك. لم تكن تعرف، حتّى ذلك الحين، أنّ شقيقها يعاني خطر الموت، وأنّ لحظاته باتت معدودة. وها هي أنّات جبران تكاد تتلاشى، وآخر نفس من أنفاسه ينسلّ عند نحو الساعة الحادية عشرة من ليل الجمعة العاشر من نيسان ١٩٣١[١].

أُبْلِغَ الريحاني نبأ نقل جبران إلى المستشفى ليلة وفاته. فهرع إلى المستشفى مع صَحْبٍ من رفاقه بغية افتقاده، وكان معهم شقيقه ألبرت الرّيحاني. وصلوا عند منتصف الليل وصعدوا حالًا إلى غرفته، وإذا بممرّضة تخرج منها وتبلغهم أنّه "قد مضى"[٢].

مأتم جبران

أُقيم لجبران مأتم مهيب. فبعد أن غادرت مريانا ومَن معها المستشفى إلى فندق قريب، قصدوا صباح اليوم التالي– يوم السبت– محترف جبران ولاقاهم نعيمة وآخرون إلى هناك، وبدأوا الاهتمام بالترتيبات اللازمة لما بعد الوفاة. وكان قد قرّ الرأي أن يُعرَض الجثمان في نيويورك، طوال نهار الأحد، قبل نقله إلى بوسطن، كي يتسنّى للمودّعين إلقاء النظرة الأخيرة عليه. نُقل الجثمان صباح الأحد من المستشفى وسُجّي في قاعة خاصّة، وتقاطر الآف المودّعين لوداعه الوداع الأخير. وصباح الإثنين نُقل الجثمان بالقطار إلى بوسطن، ترافقه مريانا واثنان من أنسبائها ونعيمة، فضلًا عن عدد من أعضاء الرابطة القلميّة وسيّدتين أميركيّتين إحداهنّ بربارة يانغ، وسُجّي في قاعة "جمعيّة المساعدة للسيّدات السوريّات" حتّى صباح الثلاثاء، ومنها إلى كنيسة سيّدة الأرز المارونيّة. وبعد الصلاة عليه في الكنيسة، سِيْرَ به في موكب حافل إلى ضريح "مونت بنديكت" في ضاحية من ضواحي المدينة[٣].

بعد المأتم المهيب الذي أُقيم لجبران، توالت الاحتفالات التذكاريّة التكريميّة في عدد من المدن الأميركيّة، ومنها حفل تداعى لإحيائه رهط من أصدقائه الأميركيّين. أُقيم الحفل في قاعة متحف زوريخ في نيويورك في ٢٩نيسان ١٩٣١، وقد شارك فيه نعيمة وألقى قصيدة بالإنكليزيّة، ثمّ عاد ونشر ترجمة لها في كتابه عن جبران. أضف إلى ذلك ذكرى الأربعين التي أحيتها الجالية السوريّة في بروكلين برعاية الرابطة القلميّة، وكان نعيمة عريفها[٤]. أمّا في بيروت فأقيمت احتفالات تكريميّة مماثلة، نشير إلى واحد منها وهو الذي أُقيم في الذكرى الأربعين لوفاته، وكان الرَّيحاني أبرز المتكلّمين فيه[٥].

---

[١] . مرجع نفسه، ص ٢٦٢، ٢٦٤. وأثبت الكشف الطبّيّ، بعد الوفاة، تحجّرًا في الكبد، مع بداية سلّ في إحدى الرئتين (مرجع نفسه، ص ١٧).

[٢] . الرَّيحاني، أمين، **وجوه شرقيّة غربيّة**، دار الرّيحاني للطباعة والنشر، بيروت، طبعة أُولى، ١٩٥٧، ص ١٣٢.

[٣] . مرجع نفسه، ص ٢٧١، ٢٧٣؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ١٨٠. وحول وصيّة جبران التي قُدّمت إلى المحكمة وتحمل تاريخ ٣٠ آذار ١٩٣٠ ، والتي كان قد أودعها عند مدير أعماله "إدغار سباير"، ووُجدت نسخة منها لدى شقيقته مريانا في بوسطن، والأشخاص الذين ذكرهم فيها، ومجمل ما تساويه تركته بالسيولة النقديّة، يُراجع نعيمة ص ٢٧٦ و ٢٧٧.

[٤] . نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٣١٦– ٣٢٠.

[٥] . يُراجع نصّ كلمة الرَّيحاني في كتابه: **وجوه شرقيّة غربيّة**، مرجع سابق، ص ١٣٢– ١٣٤.



بعد أشهر عدّة، رأت شقيقته أن تنقل الرفات إلى لبنان إنفاذًا لرغبة شقيقها. بلغت الرفات بيروت في ٢١ آب ١٩٣١ وجرى لها استقبال حاشد. وفي اليوم التالي انطلقت في موكب مهيب إلى بشرّي، إلى مار سركيس حيث الخلوة التي لطالما منّى النفس العيش في ظلّ سكينتها، وكان ذووه قد وُفّقوا إلى شراء ذاك الدير[١].

[١]. مرجع نفسه، ص ٢٧٥. يُراجع أيضًا ما كتبه نعيمة في هذا الشأن (ص ٢٠٧-٢١٢)، حين كان "جالسًا في كرسيّ على دكّة التصوير" وجبران منهمك بتصويره وهو يحدّثه عن رغبته تلك.

ملحق

نساء في حياة جبران

يتضمّن هذا الملحق نبذة عن عدد من النساء ربطتهنّ بجبران علاقة مميّزة، وإن على تفاوت في الأثر الذي تركته كلٌّ منهنّ في شخصيّته وفي نتاجه، وفي متانة العلاقة ورسوخها واستمراريّتها. ونورد أسماءهنّ، في ما يلي، مراعين التسلسل الزمنيّ في ظهور كلّ منهنّ في حياته. ونشير إلى أنّ البعض منهنّ ورد ذكرهنّ– تبسّطًا أو إلماعًا– في صفحات سابقة من هذه السيرة .

١. جوزفين بيبودي

شاعرة أميركيّة وناشطة في الحقلين الثقافيّ والفنيّ في بوسطن. التقت جبران في تلك المدينة عندما كان في الخامسة عشرة وكانت هي في الرابعة والعشرين، وأصبحت فيما بعد إحدى مُلهِماته. ويبدو أنّها هي التي دعت صديقتها ماري هاسكل إلى زيارة المعرض الذي أقامه جبران في استديو "فريد هولاند داي". أُعجبت بجبران وبذلت ما وسعها البذل لمساعدته في تفتُّح مواهبه التي تنبّهت إليها باكرًا[١].

٢. حلا الضاهر

ابنة الشيخ طنّوس الضاهر، وأوّل فتاة لبنانيّة أحبّها جبران. كانت تكبره بعامين، وقد وقفت منه موقف المتعاطف عندما نصحه عمّها، الشيخ عزيز، برعاية عنزة عوض أن يسعى إلى ارتياد مدرسة الحكمة، وكانت يومها في الثالثة عشرة من عمرها. عاد جبران والتقاها، في منزل والدها، يوم عاد إلى بيروت والتحق بمدرسة الحكمة. منعها شقيقها الشيخ اسكندر من مقابلتها إيّاه، وأُبلغ جبران ما كان يردّده الشيخ طنّوس: "السرماية إن انحطّلها شَكْلِة ألماس ما بتنحطّ عالراس". ماتت عازبة ولم يُتح لها أن تتزوّج[٢].

٣. سلطانة تابت

تعرّف إليها في بيروت، عهد الدراسة في مدرسة الحكمة، إذ رافقت نسيبة له في زيارة إليه. كانت مترمّلة في الثانية والعشرين، وكان هو في السابعة عشرة. دامت العلاقة بينهما مدّة أربعة أشهر تبادلا خلالها الكتب والتعليقات. وجد في كتبها وتعليقاتها إيجازًا وبرودة. توفّيت بعد أربعة أشهر من تعارفهما. تلقّى من أحد معارفها، بعيد وفاتها، وشاحًا حريريًّا وبعض المجوهرات،

---

١. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٠.

٢. الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع نفسه، ص ٩٢. ونشير هنا إلى أنّ الباحثة تذكر حنّا الضاهر على أنّه الوالد؛ براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٦٩ و ١٤٣.

فضلًا عن سبع عشرة رسالة مقفلة كتبتها من قبل ولم تجرؤ على مصارحته بحبّها. باح جبران بسرّها إلى ماري هاسكل في ٤ أيّار ١٩٠٨. ولمّا عرفت ميشلين بسرّه، في اليوم التالي، طلبت منه أن يضع رسمًا لها، ففعل. وعلّقت ميشلين على الرسم بأنّه جعلها تعرف سبب رسم جبران للعينين النجلاوتين في رسومه. وأضاف هو بأنّه لا يزال يذكر انحناءة عنقها الطويل[١].

٤. ميشلين

هي "ماديموازيل إميلي ميشيل"، الفرنسيّة الأصل، والمعلّمة في مدرسة ماري هاسكل، وصديقتها. تعارفا عندما زار جبران مدرسة هاسكل، خلال إقامة معرض رسومه الأوّل هناك، وكانت في العشرين من عمرها. أحبّها وأحبّته، غير أنّ حبّهما تحوّل، بعد سنتين تقريبًا من تعارفهما، إلى علاقة مضطربة. تزوّجت المحامي الأميركيّ "لامار هاردي" في ١٤ تشرين الأوّل ١٩١٤، ورُزقت أطفالًا. بقيت، بعد زواجها، على صلة طيّبة به. قضت نحبها عام ١٩٣١ بعد أشهر عدّة من وفاة جبران[٢].

٥. ماري إليزابت هاسكل

إنّها الأشهَر في حياة جبران. وقلّما توافر لإنسان، في حياته، ما توافر لجبران جرّاء صداقته لهذه المرأة. تعارفا في ١٠ أيّار عام ١٩٠٤، واستمرّت الصداقة بينهما حتّى وافاه الأجل، وبقيت على وفائها له حتّى أدركتها المنون بدورها.

وُلدت في ١١ كانون الأوّل عام ١٨٧٣ في مدينة كولومبيا في ولاية ساوث كارولينا. والدها ألكسندر شافيز هاسكل ضابط في الجيش الأميركيّ، ويحمل أوسمة شرفيّة عديدة، ثمّ أستاذ جامعيّ. لها خمس شقيقات وأربعة أشقّاء. "تثقّفت في كلّيّة "ولزلي"، ومارست الصحافة المدرسيّة. رياضيّة الجسم، طويلة القامة (١٧٦ سنتيمترًا)، زاخرة بالنشاط، عمليّة التفكير، تؤثر العلوم على الآداب، وترى من واجب المرأة أن تشارك الرجل في خدمة الوطن".

ابتداءً من العام ١٩١٠، بدأت تشعر أنّها باتت مسؤولة عن متابعة أدنى تفاصيل حياة جبران، فراحت تسجّل، في يوميّاتها، وصفًا لجميع ما يتعلّق بحياته، وأعماله، ومنازعه، وآماله، وتطلّعاته. وفي أوراق أسرة مَينس الخصوصيّة، المحفوظة في "مجموعة الجنوب التاريخيّة" في مكتبة جامعة نورث كارولينا، تشابيل هيل، ثمّة سبعة وعشرون دفترًا خصّصتها لوصف لقاءاتهما وصفًا مسهبًا. وفي الدفاتر هذه فقرات تتضمّن آراءه في الأدب، والفنّ، والفلسفة، والدين. وفيها وصف لكلّ ما يتعلّق به: كيف

---

[١] . براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٤٤، ١٤٦.

[٢] . مرجع نفسه، ص ١٤٦، ١٤٧؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٦؛ نعيمة، ميخائيل، مرجع سابق، ص ٧٩، ص ٨٣– ٨٥؛ جبر، جميل، مرجع سابق، ص ٤٨ و٤٩.

يتحرّك ويبتسم وينكّت، وكيف يحمل عصاه، وكيف يأكل. فضلًا عن تهذيبه وعاداته، وساعات عمله، والتقلّبات في صحتّه، وملابسه، وطعامه وكميّته ونوعيّتها، وكلامه وصوته ونبرته. زدْ على ذلك طريقة جلوسه حين ينصرف إلى الكتابة، وقلّة نومه، وعجزه عن الراحة والاسترخاء. وتحتوي المجموعة كذلك على الرسائل المتبادلة بينهما، ويبلغ عددها ٣٢٥ رسالة موجّهة منه إليها، و٢٩٠ رسالة موجّهة منها إليه، وتتراوح تواريخها بين العامين ١٩٠٨ و١٩٣١.

رعت جبران وأحاطته بعطفها، وكانت له خير سند، ماديًّا ومعنويًّا. لم يكتم عنها أمرًا واحدًا، وقلّما أخفى عنها سرًّا من أسراره. أطلعها على جميع أعماله، واستشارها في ما عقد العزم على القيام به. كان لها الرأي المسموع في ما أبدته من آراء، وما أسدته من نصح. واستشاراته لها تراوحت بين الأمور المادّيّة العاديّة، والشؤون الماليّة الكبرى. أمدّته بدعمها الماليّ، وأرسلته على نفقتها إلى باريس. راجعت جميع ما نشره باللغة الإنكليزيّة، مقالات وكتبًا، قبل صدوره.

بادلها جبران بالمثل، وكان لها خير صديق وناصح. وضع لمدرستها تصاميم لشعارات وجوائز. وكان يؤاسيها حين ينتابها الضيق، أو ينال منها اليأس من عملها. وكانا يتبادلان الأفكار دائمًا، ويتباحثان في الدروس التي كانت تعطيها حول "نفس العالم"[١].

في العام ١٩٢٣ باشرت حياتها الجديدة، فانتقلت للعيش في سافانا كرفيقة "لجاكوب فلورانس مَينس" رجل الأعمال الأميركيّ والثريّ الكبير، وزوج ابنة عمّتها المتوفّاة، "لويز غيلمِر مَينس". وفي ٧ أيّار عام ١٩٢٦ تزوّجته وأقامت في ولاية جورجيا. استشارت جبران في أمر زواجها فأشار عليها بالقبول، وسألها كيف تريد أن يخاطبها– بعد زواجها– في مستهلّ رسائله: "حبيبتي ماري" أو "عزيزتي ماري". التقت جبران للمرّة الأخيرة، بعد قرانها، في ١٣ من الشهر ذاته من العام ذاته. في ٦ نيسان عام ١٩٣١، أربعة أيّام قبل وفاته، تلقّى جبران منها آخر رسائلها إليه في موضوع التدقيق بكتابه "التائه"، وتخاطبه فيها: "حبّي، حبّي، بركتي". أسلم جبران الروح و"التائه" لا يزال بين يديها تقوم بمراجعته[٢].

توفّي زوجها في العام ١٩٣٦، وعاشت هي ثلاثين عامًا بعد وفاته، وكانت في الحادية والتسعين من عمرها حين وافاها الأجل في العام ١٩٦٦.

---

[١] نستقي معظم هذه المعلومات من المرجعين التاليين: رسائل الحبّ بين ماري هاسكل وجبران مع مذكّرات ماري هاسكل، ترجمة وتحقيق لوران فارس، الأهليّة للنشر والطباعة والتوزيع، عدد الصفحات ٣٨٠، طبعة ثانية، ٢٠٠٤/٤/١؛ والموقع الإلكترونيّ "معابرنا":www.maaber.or>isue-july 04 : حياة جبران خليل جبران وماري هاسكل.

[٢] . براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٥١، ١٥٣؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٩٥، ١١٣.

٦. شارلوت تيلر

ابنة السناتور تيلر عضو الكونغرس الأميركيّ، وصديقة ماري الحميمة، وتقاربها عمرًا. ويوم تعارفها وجبران كان طلاقها لا يزال حديثًا. ديناميّة الشخصيّة، طلِقة اللسان، رائعة الحيويّة. كاتبة مسرحيّة، وصحفيّة، وناقدة أدبيّة. عرّفها جبران بأمين الرّيحاني وربطتهما صداقة عميقة جدًّا بعد تعارفهما. أُعجبت بأمين وأحبّته، كما أُعجبت بأدبه إعجابًا جمًّا، وكتبت مقارِنة بينه وبين أدب جبران مفضّلة ألأوّل عليه في نواحٍ عديدة، كما كتبت إلى ماري معبّرة عن إعجابها ذاك. نشب خلاف بينها وبين أمين ما لبث أن تفاقم وأدّى إلى انقطاع العلاقة بينهما، وإلى فتور العلاقة بينه وبين جبران، بعد فترة من نشر كتاب "خالد". تزوّجت في تشرين الثاني من العام ١٩١٢ من رجل يُدعى Hirsch. برزت في عصرها كمدافعة عن حقّ المرأة في الانتخابات. رأت رأي جبران في التقمّص، وصرّحت أنّ روحها عاشت في مصر القديمة، ثمّ تقمّصت في أجساد عديدة منها هنغاريّة وفرنسيّة قبل أن تحلّ أخيرًا في جسدها الحاليّ[١].

٧. ماري خوري

كانت متزوّجة، ومن المرجّح أنّه وقع في حبّها خلال السنوات الأولى من إقامته في نيويورك. ولعلّها هي المقصودة في رسالته إلى هاسكل عام ١٩١٤، والتي يشير فيها إلى امرأة أغوته وهامت بحبّه هيامًا شديدًا[٢]. يُقال إنّه كتب إليها أكثر من مئتي رسالة.

٨. مي زيادة (١٨٨٦–١٩٤١)

ابنة وحيدة لأب لبنانيّ وأمّ فلسطينيّة أرثوذكسيّة. تلقّت دروسها الإبتدائيّة في الناصرة، والثانويّة في عينطورة. انتقلت مع أسرتها للعيش في القاهرة حيث درست في كلّيّة الآداب، وأتقنت الفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والإسبانيّة والإيطاليّة. اشتهرت في مصر وفي غيرها من البلاد العربيّة، ولها نتاج أدبيّ غزير. أنشأت في مصر مجلسًا أدبيًّا طبّقت شهرته الآفاق، وكانت تعقده في منزلها يوم الثلاثاء من كلّ أسبوع، ويرتاده أكبر الأعلام العرب. أرسل إليها جبران نسخة من "الأجنحة المتكسّرة" مشفوعة بكلمة إهداء بعد رسالتها الأولى إليه. رسالتاه الأخيرتان إليها إحداهما مؤرّخة سنة١٩٣٠، والأخرى لا تحمل تاريخًا. توفّي والدها عام١٩٢٩، ووالدتها عام ١٩٣٢. تعرضّت، في الفترة الأخيرة من حياتها، لمكيدة سبّبت لها مأساة مفجعة، فنُقلت من مصر إلى لبنان، وحُجر عليها في مستشفى الأمراض النفسيّة والعقليّة، ومنه نُقلت إلى إحدى

---

[١] . الرّيحاني، أمين ألبرت، مرجع سابق، ص ٢٠٤– ٢٠٧؛ براكس، غازي، مرجع سابق، ص ٧٠؛ الحلو اللحّام، أغات مسعد، مرجع سابق، ص ٦٩.

[٢] . براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٥٤.



مستشفيات العاصمة اللبنانيّة. خرجت من مأساتها هذه بعد تدخّلات حثيثة وضغوط قويّة مارسها أكبر رجالات الأدب في لبنان، وعادت إلى مصر. لم تعِشْ طويلًا بعد محنتها هذه، وأدركها الأجل عام ١٩٤١[١].

٩. برباره يونغ

شاعرة وكاتبة أميركيّة، ورفيقة جبران في السنوات السبع الأخيرة من حياته. التقته عندما كانت في الخامسة والأربعين من عمرها، وكتاب "النبي" هو الذي مهّد لها السبيل إلى ذاك اللقاء. أُخذت بسحر فصول الكتاب، وراحت تصدّر مطالع قصائدها التي تنشرها في الصحف بأقوال تنتقيها منه، واندفعت في شرح أقواله وتعاليمه بحماسة بالغة. شاركت جبران إيمانها بالتقمّص، وكانت تعتقد أنّها عاشت في أفريقيا قبل أن تولد مرّة جديدة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وقصيدتها "كنت فتاة سوداء" تدور حول هذا الموضوع. ومع أنّها لم تكن تمتلك لا جمال جوزفين، ولا سحر ميشلين، ولا نباهة ماري وقدرتها الماليّة، إلّا أنّها موضع ثقة ومثار إعجاب لإخلاصها وولائها. يقول عنها فؤاد افرام البستاني– وينقل قوله براكس– "إنّها أصبحت من أخلص أصدقاء جبران وأصدق معاونيه مدّة سبع سنوات متوالية، يفضي إليها بكلّ ما يخالج قلبه، ويطلعها على خفايا حياته الكئيبة ولاسيّما في آخرها، فتحنو عليه حنوّ الأمّ العطوف...". ويقول عنها خريستو نجم– وتنقل كلامه الحلو اللحّام– بأنّها كانت "السكرتيرة وليس المرأة الحبيبة، والصديقة المعينة وليس الملهِمة الموحية. أحبّت جبران بصمت، وهذا الحبّ الكتوم يتجلّى في تلميحات كثيرة، وإشارات عديدة وردت في كتابها "هذا الرجل من لبنان" "[٢].

زارت برباره لبنان في ربيع العام ١٩٣٩، و"حجّت إلى مدرسة الحكمة حيث تعلّم جبران خليل جبران، وبودّها أن تعلّم ابنها في المعهد الذي درس فيه واضع كتاب "النبي"، ورجعت إلى أميركا بانتظار انقشاع الغيوم السياسيّة المتلبّدة بالزئير الألمانيّ بعد احتلال ممرّ "دانتزيغ" (المرفإ البولونيّ على بحر البلطيق)"[٣]. ويبدو أنّ اندلاع الحرب العالميّة الثانية حال بينها وبين تحقيق رغبتها تلك.

١٠. هيلانة غسطين

تمّ اكتشاف هذه المرأة، في حياة جبران، من قبل الأديب الأردنيّ إبراهيم ناصر سويدان، وخصّص لها فصلًا في كتاب له أصدره في لوس أنجلوس تحت عنوان: "جبران كما أعرفه"، لمناسبة الذكرى السبعين لرحيل جبران.

---

[١] .براكس، غازي، مرجع سابق، ص ١٥٤.

[٢] . مرجع نفسه، ص ١٥٦، ١٥٨؛ الحلو اللحّام، مرجع سابق، ص ١١٣، ١١٤.

[٣] . روى هذا الخبر الخوري لاوون مقصود (مدير الدروس العربيّة في مدرسة الحكمة في بيروت في تلك المرحلة) للأديب فؤاد حبيش صاحب "دار المكشوف للنشر". راجع أبي ضاهر، جوزف، **فؤاد حبيش وزمن المكشوف**، منشورات جامعة سيدة اللويزة، زوق مصبح، ط.١، ٢٠١٦، ص ٢٢، حاشية رقم ٢.



والدها الشيخ جريس غسطين بعقليني من بلدة بزبدين، إحدى بلدات المتن الجنوبيّ، وأمّها تقلا مكرزل شقيقة نعوّم مكرزل صاحب جريدة "الهدى" المهجريّة. تلقّت تعليمها في بيروت، وهاجرت إلى نيويورك عام ١٩١٧، وتابعت دراستها في إحدى جامعاتها. أجادت، فضلًا عن العربية لغتها الأمّ، الفرنسيّة والإنكليزيّة. قامت بمهام عديدة منها: مديرة لإحدى مستشفيات المكفوفين، محرّرة في "الهدى" حيث كانت تحضر اجتماعات "عصبة الأمم" التي أنشأها فيلكس فارس، فمعلّمة في مدرسة خاصّة في نيويورك. بعد تقاعدها، استقرّت في لوس أنجلوس، وهناك التقاها مؤلّف الكتاب عام ١٩٦٤ في مكتب "الهدى"، وقصّت على سويدان قصّة لقاءها جبران، وعلاقتهما التي دامت ستّ سنوات.

لقاءها الأوّل وجبران تمّ في مكتب "الهدى" في نيويورك، في نهاية اجتماع دُعي إليه مع مجموعة من وجهاء المهاجرين وأعيانهم لبحث أوضاع المجاعة في لبنان أثناء الحرب العالميّة الأولى، وللتشاور في كيفيّة جمع التبرّعات وتوزيعها على المحتاجين. في نهاية الآجتماع دعاها إلى زيارته في محترفه، فردّت بأنّها ستذهب إذا ذهب فيلكس فارس. وبالفعل، زراته في "الصومعة" برفقة فارس، وكان نعيمة حاضرًا. أعدّت لهم القهوة العربيّة التي يحبّها جبران، وسكبتها في فناجينه الصينيّة الخشبيّة الحمراء[1].

في هذا اللقاء أحبّت هيلانة جبران، وأحبّها هو كذلك. وبعد تعارفهما راحت تزوره في محترفه، ويذهبان معًا في زيارات خاصّة هامّة. تبادلا الرسائل العاطفيّة، وحاولت استدراجه للزواج، لكنّها لم تنجح.

أهداها، في بداية تعارفهما، صورته مذيّلة بأشعاره، فضلًا عن نسخ من كتبه الثلاثة: "الأرواح المتمرّدة"، و"الأجنحة المتكسّرة"، و"دمعة وابتسامة"، مع إهداء خاصّ على كلّ نسخة منها.

أهدت هيلانة سويدان، قبيل وفاتها عام ١٩٦٧، خمس رسائل أصليّة بخطّ جبران، فضلًا عن فناجين القهوة الخشبيّة الصينيّة الحمراء التي كان جبران يستخدمها[2].

---

[1] . مجلّة كفربو الثقافيّة، مجلّة إلكترونيّة تصدر شهريًّا من الإقليميّة إلى العالميّة، الصفحة الرئيشيةّ، العدد ٢٢، تشرين الأوّل، ٢٠١٣.

[2] . مرجع نفسه. وتشير مراجع عديدة، تتناول هذه الناحية عند جبران، إلى سيّدات أخريات منهنّ ماري قهوجي، وماريتا لوسي أو مسز ماسون التي كانت موديله لفترة، وكورين روزفلت أخت تيودور روزفلت (١٨٥٨-١٩١٩) الذي أصبح الرئيس السادس والعشرين لجمهوريّة الولايات المتّحدة الأميركيّة بين العامين ١٩٠١- ١٩٠٩، وغيرهنّ. لكنّنا اكتفينا باللواتي أوردنا نبذة عن كلّ منهنّ ليقيننا بأنهنّ الأكثر تأثيرًا من سواهنّ في حياته.